# السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع

**إعداد: الشيخ / السيد طـه**

# السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع

إعداد: الشيخ / السيد طـه

# المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ...الحمد لله العزيز الغفار مكور الليل والنهار تبصرة لذوي العقول وتذكرة لأولي البصار، فقال تعالي {يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار(44)} (النور).

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... له الملك وله الحمد يحي ويميت وهو علي كل شيئ قدير ...قص علينا قصص السابقين للعبرة والعظة، فقال تعالي {لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} (يوسف:111).

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صلي الله عليه وسلم كان صمته فكرا ونطقه ذكرا ونظره عبرة .

فاللهم صل علي سيدنا محمد وعلي آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا ..

فإن الناظر إلى الأحداث الجسيمة والنوازل العظيمة التي أحاطت اليوم بالعالم عامة وبالأمة الإسلامية خاصة لا يستغرب حدوثها ولا يفاجأ بها حينما يرجع إلى كتاب ربه وينطلق من توجيهاته في ضوء سنن الله تعالي التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابي فردا على حساب فرد، ولا مجتمعا على حساب مجتمع آخر .

وما أصاب الأمة الإسلامية اليوم من غثائية فأصبحت كالقصعة المستباحة إلا بسبب جهل أبنائها بالسنن الإلهية التي تحكم حياة الأفراد والأمم والشعوب، وفق المنهج الذي قرره العليم الخبير: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[الملك].

فالذي يطلب الأسباب ليخرج من ظلمات هذا التيه على غير بصيرة لا يزيد إلا بعدا، ولن يفهم التاريخ، فيعرف عوامل البناء والأمن والاستقرار والبقاء والتمكين، وعوامل الهدم والخوف والتدمير و الاستبدال إلا بمعرفة سنن الله عز وجل.

وما أحوجنا في أزمنة الأحداث الجسام إلى أن نذكر أنفسنا ونذكر الناس بسنن الله تعالي ؛ فالأحداث الكبرى قد تطيش فيها عقول، وتذهل فيها أفئدة، وقد تزل فيها أقدام أقوام، وتضل أفهام آخرين، والهداية من عند الله، قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللّهُ يَهْدِي مَن يَشَاء إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة].

فهي بمثابة طوق النجاة من ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج العبد يده لم يكد يراها.

لأنه إذا أصيبت الأمة في فهمها للإسلام فلا بد من الإنحراف في تطبيقه علي أرض الواقع فكان لابد من دراسة السنن الإلهية دراسة تأصيلية ، وذلك للتعرف علي هذه الأهداف التالية ....

**1- أن يعرف الدارس ما المقصود بالسنن الإلهية.**
**2- أن يتعرف علي طبيعة السنن الإلهية.**
**3- أن يتعرف الدارس علي الآيات القرانية التي ذكرت السنن الإلهية.**
**4- أن يعرف السنن الربانية في السنة المطهرة .**
**5- أن يتعرف علي أسباب جهل الناس بالسنن الإلهية .**
**6- أن يتعرف الدارس علي بعض مظاهر السنن الإلهية.**
**7- أن يتعرف الدارس علي أهمية معرفة السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع.**
**8- أن يتعرف الدارس علي فقه المسلم في التعامل مع السنن الإلهية.**
**9- الخاتمة .**

أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يفهمنا ويعلمنا ويرزقنا الصدق في القول والإخلاص في العمل لإنه ولي ذلك والقادر عليه .

**الهدف الأول : أن يعرف الدارس ما المقصود بالسنن الإلهية :-**

**المقصود بالسنن الإلهية :-**

فهي عبارة عن قوانين وقواعد أشبه ما تكون بالمعادلات الرياضية، قد خلقها الحق سبحانه لتنتظم وتحكم حركة الكون والحياة والأحياء، وتحكم حركة التاريخ، وتنظم ناموسية التغيير، وتتحكم بالدورات الحضارية، موضحة عوامل السقوط وعوامل النهوض الحضاري. فلله في الأفراد سنن، وفي الأمم سنن، وفي المسلمين سنن، وفي الكافرين سنن.

فينبغي إذنْ معرفتها وتدبرها واستيعابها والاستفادة منها، لقوله تعالى:{ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (26)}[النساء] .

وقال تعالي {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ (53)} [فصلت]

**الهدف الثاني : أن يتعرف على طبيعة السنن الإلهية:-**

للسنن الإلهية طبيعة لا تنفك عنها وهي:-

**أ - الثبات:**

السنن الإلهية تعمل مجتمعه ولا تتخلف أو تتبدل، يخضع لها البشر في تصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، ويترتب على ذلك من نتائج كالنصر أو الهزيمة، والسعادة أو الشقاوة، والعز أو الذل، والرقي أو التخلف، والقوة أو الضعف، وفق مقادير ثابتة لا تقبل التخلف ولا تتعرض للتبديل:{فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43)}فاطر.

**ب - العموم:-**

أي أنها تشمل كل البشر والخلائق دون استثناء وبلا محاباة{ لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (123) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا(124)} النساء.

فالسنن الإلهية في الحياة البشرية دقيقة كل الدقة، صارمة منتظمة أشد الانتظام، لا تحيد ولا تميل، ولا تحابي ولا تجامل، ولا تتأثر بالأماني وإنما بالأعمال، وهي في دقتها وانتظامها وجديتها كالسنن الكونية سواء بسواء.

فهي حاكمة على جميع الأفراد، والأمم والمجتمعات، فإذا وقفنا عند قانون من قوانين الله تعالى كقانون النصر نعلم أن له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دون مجاملة ولا محاباة.

والناظر في حياة الرسول وسيرته يجد هذا المعنى واضحًا، فعندما أخذ الصحابة سنة الله في النصر مثلا آتى النصر لهم أُكُله وأعطى ثمره، وعندما خالفوا أمر الرسول صلي الله عليه وسلم في غزوة أحد ، لم تنخرم لهم السنة ولم تتبدل ؛ بل حكمت عليهم وفيهم أعظم خَلْق الله صلى الله عليه وسلم . قال تعالي { أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (165)} آل عمران.

فإن السنن لا تحيد ولا تميل مع الأماني، وإنما تتأثر بالأعمال الجيدة والجهود المنظمة والمخططات المحكمة؛ للوصول إلى النتائج المحددة المطلوبة.

**ج - التكرار:-**

تتكرر السنن الإلهية أينما وجدت الظروف المناسبة مكانا وزمانا وأشخاصا وأفكاراَ قال تعالي { قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138)}**آل عمران.**

"جاء القرآن يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة وطرائق قويمة، فمن سار على سنته في الحرب مثلا ظفر بمشيئة الله وإن كان ملحدا، ومن تنكبها خسر وإن كان مسلما.

إن سنن الله تعالى أو القوانين التي يخضع لها الكون ثابتة وشاملة لا تتغير مهما تغيّر الزمان والمكان:{ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً( 43)}[فاطر].

ولقد نجم هذا الثبات وذلك الشمول عن أمرين:

**الأول:** استبعاد عنصر المصادفة تماماً، إذ لا يمكن للمصادفة أن تثبت نظاماً أو تجعله شاملاً.

**الثاني:** أن الثبات والاطِّراد والشمول جعل قيام العلم أمراً ممكناً، إذ لو تغيّر نظام الوجود وخصائص الأشياء من مكان إلى آخر أو من زمان إلى آخر لما قامت حقائق علمية، ولما كان هناك تقدّم وحضارة.

ولـمّا كــان دور العلــم أن يبصّرنا بآيات الخــالق جلّ عُلاه في الكون وبنظامه الرائع البديع، كان اطِّراد هذا النظام وسيلة إلى اكتشاف السنن الاجتماعية والتاريخية وقوانين المادة التابعة الصارمة التي لا تعرف التغيير والتبديل، مما يساعد الإنسان على معرفتها ثم التكيّف معها وتوظيفها في عمارة الأرض وبناء الحضارة.

**الهدف الثالث : أن يتعرف الدارس على الآيات القرانية التي ذكرت السنن الإلهية:-**
**وردت لفظة سنة الله أوسنتنا في القرآن الكريم في مواضع، قال تعالى:**
1- { لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا(60) مَلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62) }[الأحزاب]
2- ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (82) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (83) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (84) فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (85) ﴾[غافر].
3- ﴿ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا(23) ﴾[الفتح].
4- ﴿ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ ۖ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (38) ﴾[الأحزاب].
5- ﴿ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (43) ﴾[فاطر]
6- ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (76) سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (77) ﴾
**[الإسراء].**
**كما وردت لفظة سنت الأولين التي هي سنة الله فيهم في مواضع أخرى..**
لقد أضافها الله عز وجل إلى نفسه تارة ( سُنَّةَ اللهِ ) وأضافها إلى القوم تارة أخرى(سُنَّةُ الأوَّلِينَ ) لتعلق الأمر بالجانبين، وهو كلفظ الأجل، تارة يضاف إلى الله، وتارة إلى القوم، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾. وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ﴾.
1- ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38) ﴾[الأنفال]
2- ﴿ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (11) كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ(12) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (13) ﴾ [الحجر].
3- ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (55) ﴾ [الكهف]

**كما وردت لفظة سنن مفردة غير مضافة في موضع واحد:**

1- ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)هَٰذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ (138) ﴾ [آل عمران]

والآيات من كتاب الله عز وجل في ذكر مثل هذه السنن كثيرة جداً غير محصورة فيما ذكرنا بلفظ السنن بل ورود المعنى متضافر الذكر في القرآن وبخاصة عند التقديم والتعقيب على قصص الأنبياء مع أقوامهم ومن ذلك ما ورد في القرآن من ذكر (أَيَّام اللّهِ).

قال تعالى عن نبيه موسى عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (5) ﴾إبراهيم.

وأيام الله: "وقائع الله في الأمم السالفة، والأيام التي انتقم فيها من الأمم الخالية".

• (أَيَّام اللّهِ) التي تفسر سنن الله ليست ماضية فقط، بل هي حاضرة أيضا ومستقبلة؛ فكما جرت بشأن السنن أيام ووقائع في الماضي الغائب عنا؛ فهي تجري في الحاضر المحيط بنا والمستقبل البعيد منا..

ومما ورد في معنى الاعتبار بالسنن أمر الله بالسير في الأرض للاعتبار بمن سبق.

والأمر بالسير في الأرض والدعوة إليه ورد في القرآن الكريم في مواضع عدة منها: قوله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (46) ﴾ الحج.

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (9)﴾ الروم.

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (36) ﴾[النحل]

<u>تطابق الواقع مع ما قرره القرآن من سنن إلهية:</u>

ولما كان الكفار لا يؤمنون بكتاب ربنا بل لا يؤمنون بكثير من الغيب جعل الله لسننه شواهد مادية باقية، فنحن نشاهد آثار قرى عاد و ثمود، وكيف أهلكهم الله تعالى، وبقيت معالمهم ومصانعهم عبرة حتى نهى النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه غشيانها وإتيانها، إلا أن يكونوا باكين معتبرين، يعرفون ما هذه السنة التي جرت على هؤلاء فيتجنبونها.

وكذلك جثة فرعون مصر التي تطوف العالم اليوم ليحق فيه قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾[يونس].

والتاريخ يصدق هذه السنن التي جاءت في النصوص الشرعية، ولم تكن السنن لتجري على الكفار دون المؤمنين فانظر على سبيل المثال ما حل بالمسلمين في أواخر الدولة الإسلامية في الأندلس؟!

كيف غير المسلمون حالهم فغير الله عز وجل حالهم؟! ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.وهذه سنة الله في الأمم.

**الهدف الرابع : أن يعرف السنن الربانية فى السنة المطهرة:-**

الناظر في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم قولا وعملا وهي الجانب التفصيلي للقرآن الكريم يجد كيف كان صلوات الله وسلامه عليه يحسن التعامل مع سنن الله في كونه وقوانينه في عباده، فما من معركة إلا والرسول يتعامل مع الأسباب؛ يجعل مقدمة ومؤخرة وميمنة وميسرة وقائدا، ثم يقبل على الله تعالى ملحًّا في دعائه مبتهلا في رجائه، فهذا نوع من إدراك سنن النصر التي تعتمد على أسباب مادية وأسباب معنوية، وهذا الأخذ بالأسباب في حد ذاته سنة من سنن الله تعالى في الكون.

وفي مجال التربية: حين يربي الرسول أصحابه على قيمة من القيم تلمح استصحاب هذا الإدراك القوي للسنن التي بثها الله تعالى في خلقه، فحديثه عن اتباع سنن مَنْ قبلنا من الوضوح بمكان، وإرشاده لمن يستجديه من الناس إلى سنة الله في الرزق واضحة عندما يأمره بأن يذهب فيشتري قدوما ويحتطب.

فعن أنس رضي الله عنه ( أنَّ رجلاً من الأنصار أتى النبي صلَّى الله عليه وسلَّم - يسأله فقال صلَّى الله عليه وسلَّم (أَمَا في بيتك شيء؟)، قال الرَّجل: بلى، حِلْسٌ[كساء يلبس، ويفرش على الأرض، ويجلس عليه.] نلبس بعضَه، ونبسط بعضه، وقَعْبٌ[الإناء] نشربُ فيه من الماء، قال صلَّى الله عليه وسلَّم (ائتني بهما) ، فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم بيده، وقال: (مَن يشتري هذين؟)، فقال رجل: أنا آخذهما بدِرهم، قال صلَّى الله عليه وسلَّم (مَن يَزيد على درهم؟) مرَّتين أو ثلاثًا، قال رجل: أنا آخذهما بدِرهمين، فأعطاهما إيَّاه وأخذ الدِّرهمين، وأعطاهما الأنصاريَّ، وقال: (اشترِ بأحدهما طعامًا، فانبذه إلى أهلك، واشترِ بالآخرِ قَدُومًا فأتِني به) فأتاه به، فشدَّ فيه رسولُ صلَّى الله عليه وسلَّم عودًا بيده، ثم قال له: (اذهبْ فاحتطب وبِعْ، ولا أرينَّك خمسةَ عشرَ يومًا) ، فذهَبَ الرجل يحتطبُ ويبيع، فجاء وقد أصاب عَشرةَ دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم (هذا خيرٌ لك مِن أن تجيءَ

المسألةُ نُكتةً في وجهك يومَ القيامة؛ إنَّ المسألة لا تصلح إلاَّ لثلاثة: لذي فَقر مُدقِع، أو لذي غُرْم مُفظِع، أو لذي دمٍ مُوجِع) رواه أبو داود برقم ، واللفظ له، ، وابن ماجه ، والنسائي ، وأحمد وتصويره للمجتمع الذي يتعاون على البر والتقوى، والذي يتعاون على الإثم والعدوان بمجتمع في سفينة في حديثه الشريف ،عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم(مَثَلُ القَائِم في حُدُودِ اللَّه والْوَاقِع فيها، كَمثل قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفلَهَا، فكان الذي في أَسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديِهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعا ) رواه البخاري.

تصوير دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانون الطفو فإن المجتمع يحكمه قانون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومن أروع ما يدل على حرص الرسول على تعلم أصحابه وأمته إدراك السنن الإلهية قوله لزياد بن لبيد: بعد أن ذكر شيئا وقال وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: ثكلتك أمك يا ابن لبيد، إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء﴾ (رواه احمد ).

وهذا الحديث الشريف يوضح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمر السنن التي تعم الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هذا إجابة عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين كيف يكونون مسلمين وتظل أحوالهم بهذا التخلف والتأخر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلك في قوله:

**وقل يا رسول الله يا خير مرسل — أبثك ما تدري من الحسرات**
**شعوبك في شرق البلاد وغربها — كأصحاب كهف في عميق سبات**
**بأيمانهم نوران ذكر وسنة — فما بالهم في حالك الظلمات؟!!**

فليس المراد من قوله صلي الله عليه وسلم: «وذلك عند ذهاب العلم» ارتفاع المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السنن.

والصحابة الكرام بدورهم كانوا على علم ووعي بهذه السنن، ومن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السنن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال عنه ابن مسعود عندما مات: «مات تسعة أعشار العلم، فقيل له: أتقول ذلك وفينا جلة الصحابة؟! فقال: لم أرد علم الفتيا والأحكام، إنما أريد العلم بالله تعالى﴾ .

وفي علم الصحابة بعلم السنن الإلهية يقول صاحب المنار: (وإنني لا أشك في كون الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها.
يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب الغربية منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب و غيرها بما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى، ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسبب سبقهم للأمم التي استولوا عليها.

**الهدف الخامس: أن يتعرف على أسباب جهل الناس بالسنن الإلهية:-**

**1- الغفلة عن تدبر سنن الله:**

الغفلة التي وقع فيها كثير من الناس بسبب هجر القرآن تلاوة وفهما وتدبرا وعملا يجعل الإنسان يغفل عن هذه السنن، بل إن من الناس من يعتبر الحديث عن السنن نوعاً من التهويل والمبالغة، ولقد وجهنا القرآن الكريم إلي تدبر معانية بأخذ العبرة من السابقين فقال تعالي أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (44)}.فاطر.
"والتوجيهات المكررة في القرآن للسير في الأرض والوقوف على مصارع الغابرين، وآثار الذاهبين، وإيقاظ القلوب من الغفلة التي تسدر فيها فلا تقف، وإذا وقفت لا تحس، وإذا أحست لا تعتبر، وينشأ عن هذه الغفلة غفلة أخرى عن سنن الله الثابتة، وقصور عن إدراك الأحداث وربطها بقوانينها الكلية.
وهي الميزة التي تميز الإنسان المدرك من الحيوان البهيم، الذي يعيش حياته منفصلة اللحظات والحالات لا رابط لها، ولا قاعدة تحكمها.
وأمام هذه الوقفة التي يقفهم إياها على مصارع الغابرين قبلهم وكانوا أشد منهم قوة فلم تعصمهم قوتهم من المصير المحتوم، أمام هذه الوقفة يوجه حسهم إلى قوة الله الكبرى ؛ القوة التي لا يغلبها شيء ولا يعجزها شيء والتي أخذت الغابرين وهي قادرة على أخذهم كالأولين: ﴿وَما كانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّماواتِ وَلا فِي الْأَرْضِ﴾..
ويعقب على هذه الحقيقة بما يفسرها ويعرض أسانيدها: ﴿إِنَّهُ كانَ عَلِيماً قَدِيراً﴾ .. يحيط علمه بكل شيء في السماوات والأرض وتقوم قدرته إلى جانب علمه، فلا يند عن علمه شيء، ولا يقف لقدرته شيء. ومن ثم لا يعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض. ولا مهرب من قدرته ولا استخفاء من علمه".

**2- قصر النظر واستعجال النتائج:-**

"والسبب الثاني الذي يجعل كثيراً من الناس يجهلون هذه السنن، هو أن السنة أثرها بعيد، والفارق والفاصل بين السبب والنتيجة طويل قد لا يدركه الإنسان في عمره

المحدود، إنما يدركه الذين ينظرون إلى مساحة واسعة، وربما امتدت المسافة بين السبب وبين النتيجة مثلاً بين الظلم الذي يقع وبين عقوبته، وربما امتدت المسافة إلى عمر جيل بأكمله، فربما حصد جيل ثمرة لم يكن هو الذي غرسها، وربما غرس جيل آخر شجرة، يقطف ثمرتها غيره.

**الهدف السادس : أن يتعرف الدارس على بعض مظاهر السنن الإلهية:-**

## سنة التدافع

**معنى التدافع :**

جاء في لسان العرب : الدفع الإزالة بقوة . يقال دفعه يدفعه دفعاً ودفاعاً ، ودافع عنه بمعنى دفع . ونقول : دفع الله عنك المكروه دفعاً ودفاعاً ، ودافع الله عنك السوء دفاعاً . وتدافع القوم : دفع بعضهم بعضاً .

والمدافعة : المزاحمة . والاندفاع المضي في الأمر .

وفي القرآن الكريم : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)) البقرة .

وقال تعالي { وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ(40)} الحج.

**المقصود بالحق والباطل والتدافع بينهما :**

نريد بالحق ما هو ثابت وصحيح وواجب فعله أو بقاؤه من اعتقاد أو قول أو فعل بحكم الشرع . ونريد بالباطل نقيض الحق أي ما لا ثبات له ولا اعتبار ولا يوصف بالصحة ويستوجب الترك ولا يستحق البقاء ، بل يستوجب القلع والإزالة وكل ذلك بحكم الشرع .

وعلى هذا فالحق يشمل كل ما أمر الله به ، والباطل يشمل كل ما نهى عنه .

ونريد (بالتدافع بين الحق والباطل) تنحية أحدهما للآخر أو إزالته ومحوه بالقوة عند الاقتضاء .

**التدافع بين الحق والباطل تدافع بين أصحابهما :**

والتدافع بين الحق والباطل في حقيقته تدافع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وبين غيرهم ، لأنهم هم الذين يحملون معاني الحق أو معاني الباطل ويسعون إلى إظهار هذه المعاني في الخارج وإقامة شؤون الحياة على أساسها فيحصل التعارض والتزاحم والتدافع بين الفريقين بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل أي بين المؤمنين وبين غيرهم .

**حتمية التدافع بين الحق والباطل :**
والتدافع بين الحق والباطل أي بين أصحابهما أمرٌ لا بدَّ منه وحتمي لأنهما ضدان ، والضدان لا يجتمعان ، ولأن تطبيق أحدهما يستلزم مزاحمة الآخر وطرده ودفعه وإزالته ، أو في الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة .
فلا يُتصوَّر إذن أن يعيش الحق والباطل في سلم من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعلة كضعف أصحابهما أو جهلهم بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني أو ضعف تأثير هذه المعاني فيهم .
**ـ للباطل قوة تطغيه :**
إن كلمة (تدافع) تعني في اللغة الإزالة بقوة ، فتدافع الحق والباطل أي تدافع أصحابهما يكون بقوة حيث يسعى كل من أهل الحق والباطل إلى تنحية الآخر عن مكانه ومركزه والغلبة عليه .
فأهل الباطل لا يكفيهم بقاؤهم على باطلهم وإنما يسعون إلى محق الحق وأهله وإزالة هذا الحق بالقوة وصد الناس عنه ببذل المال وبالقتال وبكل ما يرون فيه قوة وقدرة لتحقيق ما يريدون .
وهذا هو شأن الباطل وقوته ، تطغيه هذه القوة فتدفعه إلى إزالة الحق وأهله ولو بالقوة .
ولا بد أن أهل الحق وإن تركوا الباطل فإن الباطل لن يتركهم أبدا:
وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: { وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(217)} **[البقرة].**
وقد ورد عن الإمام الشافعي قوله: والله الذي لا إله إلا هو لو أن الحق ترك الباطل ما ترك الباطل الحق أبدا.
ويؤكده قول الله تعالى في قصة قوم لوط عليه السلام, الذي لم يتجاوز النصح والإرشاد لقومه, كما قال تعالي{ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (56)} [النمل] .
وقال تعالى : (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ)الأنفال .
وقتال الكفرة للمؤمنين قتال لنصرة باطلهم فهو في سبيل الطاغوت ،
قال تعالى(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا (76)) النساء

**ـ لا بدّ للحق من قوة تحميه :**

وإذا كان الأمر كما ذكرنا من شأن الباطل وقوته التي تطغيه وأهله فلا بدّ للحق من قوة تحميه من طغيان الباطل وأهله ، وتمكِّن أهل الحق من محق الباطل والغلبة على أهله .

ولهذا أمر الله تعالى أهل الحق بإعداد القوة لإرهاب أهل الباطل ومنعهم من التحرش بأهل الحق ، قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60))الأنفال .

وأمر الله تعالى أهل الحق بالجهاد في سبيل الله بالمال وبالنفس وبكل ما يمكن الجهاد به لمحق الباطل وأهله لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .

والآيات في الجهاد بأنواعه ومنه القتال ، آيات كثيرة منها : (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (41))التوبة.

وقال تعالى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216))البقرة.

وقال تعالى : (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39)) الأنفال .

يقول صاحب الظلال رحمه الله:'إن تكاليف الخروج من العبودية للطاغوت والدينونة لله وحده مهما عظمت وشقت أقل وأهون من تكاليف العبودية للطواغيت! إن تكاليف العبودية للطواغيت فاحشة مهما لاح فيها من السلامة والأمن والطمأنينة على الحياة والمقام والرزق!

- إنها تكاليف بطيئة طويلة مديدة! تكاليف في إنسانية الإنسان ذاته؛ فهذه الإنسانية لا توجد والإنسان عبد للإنسان؛ وأي عبودية شر من خضوع الإنسان لما يشرعه له إنسان؟! وأي عبودية شر من تعلق قلب إنسان بإرادة إنسان آخر به، ورضاه أو غضبه عليه؟! وأي عبودية شر من أن تتعلق مصائر إنسان بهوى إنسان مثله ورغباته وشهواته؟! وأي عبودية شر من أن يكون للإنسان خطام أو لجام يقوده منه كيفما شاء إنسان؟!

**طبيعة التدافع بين الحق والباطل:-**

الصراع بين الحق والباطل قديم منذ أن خلق الله الإنسان, قال عز وجل:{ يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ( 117 )} ( طه).

ومنذ تلك اللحظة ابتلى الإنسان بكيد الشيطان, وصراعه معه, ومازال الشيطان يكيد لآدم حتى أهبط لهذه الدنيا, وهنا انتقل ميدان الصراع إلى هذه الأرض , يقول الله عز وجل {بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ...(36) } [البقرة ].
وبعد بعثة الرسل عليهم السلام صارت الخصومة بين الرسل وأتباعهم, وبين أعداء الرسل من الشياطين وأتباعهم, ولذلك يقول الله تعالى:{ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ (31)}(الفرقان) .
فما من نبي يبعث إلا ويتصدى له أعداء من المجرمين, يضعون العراقيل في طريقه ويعترضون عليه بمختلف الوسائل, يقول الله جل وعلا{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ( 112) وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ( 113) }( الأنعام) .
وبعد بعثة النبي الخاتم صلى الله عليه وسلم انحصرت الخصومة بين أتباع النبي صلى الله عليه وسلم وبين أعدائه , فالنبي صلى الله عليه وسلم كان له أعداء كثيرون من المجرمين,ومن الأكابر،قال تعالي{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجَرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلاَّ بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ( 123 ) } (الأنعام).
وقال تعالي{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا(56)} (الكهف)
ولوتتبعنا سير الأنبياء عليهم السلام لوجدنا سبب الصدود والاضطهاد من أقوامهم كان سببه العقيدة الإسلامية وليس المنصب والجاه.
كما قال الله تعالي عن العداء من قوم لوط عليه السلام{ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ(82)}[ الأعراف]
وقالوا لشعيب عليه السلام{ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ(88)} **الأعراف**
و قول ائمة الكفر لأئمة الحق{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (13)}[ ابراهيم]
وقال تعالي عن أصحاب الأخدود { قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ (4) النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ (5) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ(6) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (7) وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (8) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (9)} البروج.
وقال تعالى{وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي
جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120)} [البقرة]

والسبب فى ذلك ما بينه ربنا بقوله تعالى{لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا(82) }[المائدة]
وقال تعالى{وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ. (109)} [ البقرة].

## سنة : وإن جندنا لهم الغالبون

**من السنن الإلهية ... الغلبة فى هذا التدافع للحق وأهله :ـ**

سنّة الله في نصر المؤمنين لا تتخلف :
إن سنّة الله تعالى في نصر المؤمنين لا تتخلف أبداً لأنها إخبار من الله تعالى والله أصدق القائلين .
وأذكر فيما يلي بعض النصوص من القرآن الكريم الدّلة على ذلك .
أ ـ قال تعالى : (وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً {22} سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً)الفتح .
قال القرطبي في قوله تعالى : (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ) يعني طريقة الله وعادته السالفة نصر أوليائه على أعدائه . وقال ابن كثير في تفسيرها : أي هذه سنّة الله تعالى وعادته في خلقه : ما تقابل الكفر والإيمان في موطن فيصل إلا نصر الله الإيمان على الكفر فرفع الحق ووضع الباطل كما فعل الله تعالى يوم بدر.
ب ـ قال تعالى : (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34)) الأنعام.
وجاء في تفسيرها : (وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ) أي التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين كما قال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) .
ج ـ قال تعالى : (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ) . وجاء في تفسير الزمخشري في هذه الآيات : الكلمة : قوله تعالى : (إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون) والمراد الوعد بعلوهم على عدوهم في مقام الحجاج وملاحم القتال في الدنيا وعلوهم عليهم في الآخرة .
د ـ قال تعالى:(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (21))المجادلة.
وجاء في تفسيرها : أي قد حكم الله وكتب في كتابه الأول وقدره الذي لا يخالف ولا يُمانع ولا يُبدل بأن النصر له ولكتابه ورسله وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة.
هـ ـ وقال تعالي{إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (51)}[ غافر] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :(وهذه سنّة الله تعالى في خلقه في قديم الدهر وحديثه أنه ينصر عباده المؤمنين في الدنيا ويقرّ أعينهم ممن آذاهم .
وقال السدّي لم يبعث الله عز وجل رسولاً قط إلى قوم فيقتلونه ، أو قوماً من المؤمنين يدعون إلى الحق فيقتلونهم فيذهب ذلك القرن حتى يبعث الله تبارك وتعالى لهم من ينصرهم فيطلب بدمائهم ممن فعل ذلك بهم في الدنيا .
قال السدي : فكانت الأنبياء والمؤمنين يقتلون في الدنيا وهم منصورون فيها ) .
ومعنى ذلك أن المؤمنين وهم أهل الحق هم المنصورون وإن قتلهم أهل الباطل وانتصروا عليهم في الظاهر إلا أن العاقبة والغلبة للمؤمنين ولو بعد حين ، حيث يأتي من يعاقب المبطلين ويقتلهم جزاء ما فعلوه بأهل الحق ، وهذا علامة على اندحار أهل الباطل وغلبة أهل الحق عليهم .
و ـ ولقد وعد الله بالتمكين والنصر لعباده المؤمنين فقال تعالي{وَكَانَ حَقاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ(47)}[سورة الروم.
وجاء في تفسيرها : فيها مزيد تشريف وتكرمة للمؤمنين حيث جعلوا مستحقين على الله تعالى أن ينصرهم ، وإشعار بأن الانتقام لأجلهم .
وظاهر الآية أن هذا النصر في الدنيا وأنه عام لجميع المؤمنين فيشمل من بعد الرسل من الأمة .
ولقد حكي الله تعالي ما حدث في بدر رغم عدم التكافؤ بين الفريقين ومع ذلك كان النصر حليف الفئة المؤمنة ذات العدة والعدد القليل ، فقال سبحانه وتعالي : {قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ۚ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (13)}
**(آل عمران).**
يقول الإمام الحافظ ابن كثير: إن في ذلك لَمُعْتَبَرًا لمن له بصيرة وفَهْم، يهتدي به إلى حكم الله وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد.
وفي قصة نبي الله موسى عليه السلام مع فرعون خير مثال على انتصار الحق في النهاية, رغم مظاهر انتصار الباطل في البداية, قال تعالى: { فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (118) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (119)وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (122)} الأعراف.
وقال تعالي{...وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً(141)}[ النساء] .
وقد وعد الله تعالي بأن لا يخلي الأرض من عباده المجاهدين المتمسكين بالحق, إن ذهب جيل قيض الله جيلا آخريدافع عن الحق كما قال النبي صلي الله عليه وسلم (لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِى ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِىَ أَمْرُ اللَّهِ

وَهُمْ ذَلِكَ) رواه مسلم . وأخبر بأنها منصورة بأمره ، كما قال صلى الله عليه وسلم : [ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ ] **(رواه الترمذي,وابن ماجه, وأحمد) .**

## قانون النصـــر

**ومن السنن الإلهية ...أن النصر لا يأتي بالمعجزة السحرية ،**

النصر لا يأتي بالمعجزة السحرية ولا بد له من أسباب وشروط فمن أهما الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره واتباع رسوله: قال تعالى:{ إن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ(7)}[ محمد] .

وقال تعالى:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (173)}[الصافات] .

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (45) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ(46)}[ الأنفال] .

وإذا تخلفت هذه الأسباب؛ تخلف النصر بطبيعة الحال، وربما حلت الهزيمة؛ لأن سنن الله تعالى لا تحابي ولا تجامل أحداً من الخلق، ولا تجاري أهواء البشر، وإنما تساير أعمالهم

**واقع المسلمين لا ينقض سنّة الله في نصر المؤمنين :**

إنّ سنّة الله في نصر المؤمنين المقررة بإخبار الله وإعلامنا بها في القرآن الكريم هي سنة مؤكدة يقيناً لا يخامرنا فيها ذرة من الشك ، ولا تنتقض أو تتزعزع بما يُرى من واقع المسلمين في كونهم مغلوبين لا غالبين ومقهورين من قبل أعدائهم غير منصورين عليهم، لأن هذه السنّة هي في (نصر المؤمنين) والمؤمنون هم من يكونون مؤمنين بأوصاف ومقاييس ومعاني الإيمان التي بيّنها الله تعالى في كتابه العزيز وبيّنها رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته النبوية الكريمة المطهرة ، لا أن يكونوا مؤمنين بمقاييسهم وتخيلاتهم وأمانيهم ، فعدم انتصارهم على أهل الباطل يعني أن الإيمان المطلوب منهم وما يستلزمه هذا الإيمان ويقتضيه من صفات وأفعال غير متحقق فيهم ، وبالتالي لا يستحقون نصر الله الموعود به للمؤمنين . فعليهم أن يراجعوا أنفسهم ويعرضوها ويعرضوا أحوالهم وأفعالهم وما هم عليه على معاني الإيمان ومقتضياته ويزنوها بميزانه ليعرفوا الخلل الذي هم فيه ، والنقص الموجود فيهم فيقوموا بالتصحيح والتقويم وتدارك ما فاتهم وتحقيق معاني الإيمان في نفوسهم وثمرات هذا الإيمان في خارج نفوسهم حتى يدخلوا في مضمون سنّة الله تعالى في

نصر المؤمنين وفي متعلق إخباره تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (47)) الروم.

## سنة:لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى

**قد يسبق نصر المؤمنين أذى من العدو وغلبة له :**

لقد جرت سنة الله تعالي في هذا الصراع أن أهل الباطل لا ينالون من أهل الحق إلا مجرد أذي ، قال تعالي نْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى ۖ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ (111) } آل عمران.

إن نصر الله تعالى للمؤمنين حسب سنّته تعالى في نصرهم لا يأتي عادة دون جهد عظيم يبذلونه وتضحية يقدمونها في مدافعتهم لأهل الباطل مما قد يترتب عليه عادة أذى شديد يلحقهم من أهل الباطل وغلبة لهؤلاء المبطلين على المؤمنين .

وهذا لا يتعارض مع سنة الله في نصر المؤمنين ؛ لأن الأمور بخواتيمها وعاقبتها . والعاقبة دائماً للمؤمنين في نصرهم على أهل الباطل .

ولله الحكمة فيما يصيب المؤمنين من أذى قبل بلوغهم النصر الحاسم على أهل الباطل وعلى هذا دلّ القرآن الكريم وأشار إليه المفسرون ، قال تعالى : (إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {140} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ) آل عمران .

بيّن الله تعالى أن المؤمنين الذين يصيبهم قرح أي جراحات بسبب القتال يجب أن لا يضعف ذلك همتهم واجتهادهم في جهاد العدو؛ لأنه كما أصابهم قرح فقد أصاب عدوهم مثله قبل ذلك ، وعدوهم لم يفتروا لما أصابهم من القرح من محاربتكم مع كونهم مبطلين وسوء عاقبتهم ، فأنتم أيها المؤمنين أهل الحق أولى أن لا تضعفوا ولا تفتروا عن مجاهدة ومحاربة هؤلاء الأعداء المبطلين .

## سنة المداولة

سنة المداولة مع أن العاقبة للتقوى كما قال تعالي(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ) **[الأعراف:128]** فكل هيمنة للشرك والكفر تتلوها بإذن الله تعالى جولة ظافرة للإسلام وللمتقين، ولهذا قال الله تعالى في نفس الآية: إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ [آل عمران:141].

فالأيام في الآية الكريمة أوقات الظفر والفوز ، ومدوالتها بين المؤمنين وأعدائهم أي تحويل الظفر والغلبة بينهم مرّة للمؤمنين ومرّة لأعدائهم ، فهذه المداولة سنّة من سنن الله في تدافع أهل الحق مع أهل الباطل ، فلا عجب أن تكون الدولة مرّة للمبطل ومرّة للمحق ؛ لأن المضمون والمؤكد لصاحب الحق أن تكون العاقبة له ، والأعمال بالخواتيم .

إذاً، الكافرين، صار لهم دولة ونصر في تلك المعركة، ولكن هذا لا يعني أن لهم استمراراً، كلا! بل إن الله تعالى أعطاهم ما أعطاهم حتى يمحص المؤمنين ويجعل العاقبة لهم، ويمحق الكافرين ويقضي عليهم ويزيلهم ويبيدهم، فأشار إلى أن العاقبة هي محق الكافرين، ويكفي أن تعلم أنه كما أن أول من كان في الدنيا وهو آدم عليه السلام وكان على الدين الحق وعلى الحنيفية هو وأولاده، علمهم الإسلام فكانوا طائعين مؤمنين.

كذلك آخر ما يكون في هذه الدنيا ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم من نـزول عيسى عليه السلام، وخروج المهدي، حيث تخرج الأرض بركاتها وخيراتها وكنوزها، حتى أن الجماعة أو الفئة من الناس يأكلون الرمان ويستظلون بقحفها، وحتى تملأ الأرض عدلا وقسطاً، كما ملئت ظلماً وجوراً، وحتى لا يوجد بين الناس حقد، أو حسد أو بغضاء... إلى آخر ما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يبعث الله تعالى الريح الطيبة فتقبض أرواح المؤمنين، ولا يبقى إلا شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة، فالمداولة إذاً نهايتها ونتيجتها للمؤمنين.

**وللمداولة حكم وأسرار منها:**

1- تحقيق عدل الله تعالى بين الأطراف، فالمقصر ينال جزاءه أياً كان.

2- ليعلم الله الذين آمنوا.

3- تمحيص الله تعالى للمؤمنين، سواء تمحيصهم بإزالة العيوب والأمراض الموجودة فيهم أم تمحيصهم بتكفير السيئات عنهم، أم تمحيصهم بإزالة المنافقين من بين الصف المسلم.

4- أن يتخذ الله تعالى ويصطفي ويجتبي من المؤمنين شهداء، كما قال: (وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ) [آل عمران:140] يختارهم إلى جواره ويرفعهم إلى أعلى المنازل.

5- (ومنها) ليمحق الكافرين .

ولهذا قال هرقل لـأبي سفيان: "هل قاتلكم الرسول عليه الصلاة والسلام؟ قال: نعم، قال: فكيف الحرب بينكم وبينه؟

قال: سجال؛ ينال منا وننال منه، أو يدال منا وندال منه، فقال له هرقل: كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة".

إذاً المداولة توحي بالحركة الدائمة والتجدد والأمل، وأن الأيام ليست ملكاً لأحد من الناس، إنما هي ملك لله تعالى، ولهذا قال الله تعالى: {وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار} فالأيام ليست ملكاً لأحد من البشر، ولا داعي لليأس والهزيمة، فمن هم الآن في القمة وسوف تنتهي بهم السنن الكونية إلى الحضيض، ومن هم في القاع سوف تصعد بهم أعمالهم الصالحة وفق السنن الإلهية الكونية بإذنه تعالى إلى القمة وإلى القوة.

**<u>نماذج المداولة من الكتاب العزيز</u>**

وهذه نماذج ذكرها الله تعالى في كتابه أسردها سرداً، والله تعالى ذكر مثلا من الأمم الصالحة الممكَّنة التي أدال الله تعالى لها، داود وسليمان وذو القرنين: إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً فَأَتْبَعَ سَبَباً [الكهف:85] .

وذكر من الأمم التي فسدت وكفرت وطغت؛ فعاقبها الله تعالى وحقت عليها سنته، سبأ وفرعون وثمود وعاد، ونحن نجد من الأمم القريبة والبعيدة من ذلك شيئا كثيراً.

ولكن يجب أن يُعرف بأن المداولة في الواقع مبنية على أعمال الفريقين فلا تكون الغلبة لمن عرف أسبابها ورعاها حق رعايتها ، فإذا كانت المداولة في النصر والغلبة بين الفريقين منوطة بالأعمال التي تفضي إليها كالاجتماع والثبات وصحة النظر وقوة العزيمة وأخذ الأهبة وإعداد ما يستطيع من القوة ، فعلى المؤمنين أن يقوموا بهذه الأعمال ونحوها من مستلزمات الغلبة والنصر حتى تكون المداولة لهم لا لعدوهم .

**<u>وقد يتأخر نصر المؤمنين لنصر أكبر :</u>**

ومما يجب أن يُعرف أنَّ نصر المؤمنين حسب سنة الله في نصرهم قد يتأخر لأن الله تعالى يريد لهم النصر الأكبر والأكمل والأعظم والأدوم والأكثر تأثيراً في واقع الحياة وفي عموم الناس بعد أن يتهيأ في المؤمنين القاعدة اللازمة لاستحقاقهم هذا النصر الأكبر واستقبالهم له ، ويدل على ذلك أن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المؤمنين ، لم يحصل هذا النصر في يوم وليلة ولا سنة واحدة ، وإنما تأخر فلم يحصل إلا بعد مضي أكثر مدة نبوته صلى الله عليه وسلم ، فقد حصل هذا النصر بالغلبة والانتصار على قريش وبفتح مكة وذلك في سنة ثمان للهجرة ، أي قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بسنتين ، وقد دخل بسبب هذا النصر الناس في دين الله أفواجاً ، وأنزل فيه تعالى سورة النصر : (إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ {1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً {2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً) .

وجاء في تفسيرها : والمعنى : نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم على العرب أو على قريش وفتح مكة . وكان فتح مكة لعشر مضين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر آلاف من المهاجرين والأنصار وطوائف العرب .
وكانت تدخل في الإسلام بعد فتح مكة جماعات كثيفة من الناس فكانت القبيلة تدخل في الإسلام بأسرها بعدما كانوا يدخلون في الإسلام واحداً واحداً أو اثنين اثنين.
وفي ذلك يطمئننا المولي تعالي عندما يتأخر ويبطئ النصروذلك لحكمة ما، لكن في نهاية المطاف هو آتٍ لا محالة:{حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ(110)}[ **يوسف**] .
ولقد حكي عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أنه "لما جاء السلطان الملك الناصر بجيوش الإسلام للقاء العدو، جعل الشيخ يشجع السلطان ويثبته، فلما رأى السلطان كثرة التتار قال يا لخالد بن الوليد! فقال له: لا تقل هذا، بل قل: يا الله؛ واستغث بالله ربك ووحده تنصر، وقل: يا مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين. ثم صار تارة يقبل على الخليفة وتارة على السلطان ويهديهما ويربط جأشهما حتى جاء نصر الله والفتح.
وحُكي أنه قال للسلطان: اثبت فإنك منصور، فقال له بعض الأمراء: قل إن شاء الله. فقال إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً، فكان كما قال.

## سنة : حتمية محق الباطل وأهله

قضت سنّة الله تعالى في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله ، وأن الاندحار والمحق للباطل وأهله ، قال تعالى : (وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) .
قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : ومن عادة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بكلماته أي بوحيه أو بقضائه كقوله تعالى : {بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (18) } الأنبياء .
وقوله تعالي { وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ ۚ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا(81)} الإسراء.
وجاء في تفسير الرازي بشأن قوله تعالى : (وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ) أي ومن عادة الله إبطال الباطل وتقرير الحق .
وقال تعالى : (إنّ الله لا يصلح عمل المفسدين) ، وجاء في تفسيرها : وهذه قاعدة عامة مبينة لسنة الله في تنازع الحق والباطل والصلاح والفساد ويدخل فيه سحر سحرة فرعون فإنه باطل وفساد ، أي لا يجعل عمل المفسدين صالحاً .

وقال الزمخشري في تفسيرها : لا يثبته ولا يديمه ولكن يسلط عليه الدمار ، وقال الآلوسي في تفسيرها : والمراد بعدم إصلاح ذلك عدم إثباته أو عدم تقويته بالتأييد الإلهي أي أنه سبحانه لا يثبت عمل المفسدين ولا يديمه بل يزيله ويمحقه أو لا يقويه ولا يؤيده ، بل يظهر بطلانه ويجعله معدوماً .

ربما ينظر البعض إلي قوة حجم الباطل من عدد وعدة فيعظم أهل الباطل ويقول لا طاقة لنا بهؤلاء ومعهم أجهزة عميقة وأسلحة فتاكة ، ونسي قوة الله تعالي الفاعلة في هذا الكون فهو سبحانه وتعالي { إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (12) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (13) وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (14) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (15) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (16) هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ (17) فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ (18) } البروج .

فمن ظن أن الباطل ينتصر علي الحق فقد أساء الأدب مع الله تعالي .

وقال تعالي { لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (196) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمِهَادُ(197) } آل عمران .

فمن حكمة الله تعالي أن الله تعالي يهلك الباطل وهو في عز قوته ويأتيه من حيث لا يحتسب ، وأمرنا سبحانه وتعالي أن نأخذ العبرة والعظة في هلاك الكافرين والمكذبين.. فعلي سبيل المثال ما حدث مع يهود بني النضير عندما ظنوا في قوة ومنعة فاتاهم الله من حيث لا يحتسب .

قال تعالى: { وَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ۖ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ(2)} (الحشر).

بعدما حدث للمسلمين في غزوة أحد ، تجرأ اليهود على المسلمين، وبدءوا يكاشفونهم بالغدر والعداوة، ويتصلون بالمشركين والمنافقين ويعملون لصالحهم ضد المسلمين، وفي يوم من الأيام خلا اليهود بعضهم إلى بعض وسوَّل لهم الشيطان أعمالهم، فتآمروا على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالوا: أيكم يأخذ هذه الرحى فيصعد بها فيلقيها على رأس محمد فيشدخ بها رأسه؟ فنجاه الله من كيدهم وغدرهم ، وما لبث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن بعث محمد بن مسلمة إلى يهود بني النضير يقول لهم: "اخرجوا من المدينة ولا تساكنوني بها، وقد أجلتكم عشرًا، فمن وجدته بعد ذلك منكم ضربت عنقه".

فلم يجد اليهود مناصًا من الخروج، فأقاموا أيامًا يتجهزون للرحيل والخروج من المدينة، غير أن رئيس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول بعث إليهم أن اثبتوا وتمنَّعوا ولا تخرجوا من دياركم؛ فإنَّ معي ألفي رجل يدخلون معكم حصونكم، يدافعون عنكم ويموتون دونكم. فأنزل الله سبحانه وتعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ نَافَقُوا

يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ(11)} [الحشر].

وهناك عادت لليهود ثقتهم، وطمع رئيسهم حيي بن أخطب فيما قاله رئيس المنافقين، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون له: "إنّا لن نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك".

وظنوا أنهم منعة وقوة ولكن من سنة الله تعالي أن يهزم الباطل من حيث لا يحتسب ولا يخطر علي باله وهم في عز قوتهم .

كان هذا الموقف موقفًا محرجًا بالنسبة للمسلمين، فإنَّ المسلمين لا يريدون أن يشتبكوا مع خصومهم في هذه الفترة المحرجة من تاريخهم؛ لأنَّ جبهة القتال مشتعلة مع المشركين، فلا يريدون أن يفتحوا جبهة أخرى مع اليهود؛ ولأنَّ اليهود كانوا على درجة من القوة تجعل استسلامهم بعيد الاحتمال، والقتال معهم غير مأمون العواقب والنتائج.

ولكنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بلغه جواب حيي بن أخطب كبَّر وكبَّر المسلمون معه، ثم نهض صلى الله عليه وسلم لقتالهم ومناجزتهم، فاستعمل على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وسار إليهم يحمل اللواء علي بن أبي طالب، فلما وصل إليهم فرض صلى الله عليه وسلم عليهم الحصار، فالتجأ اليهود إلى

حصونهم، وكانت نخيلهم وبساتينهم عونًا لهم في ذلك، فأمر صلى الله عليه وسلم بقطعها وتحريقها، وفي ذلك أنزل الله: {مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ(5)} [الحشر].

فلما رأى المنافقون جدية الأمر، خانوا حلفاءهم اليهود، فلم يسوقوا لهم خيرًا ولم يدفعوا عنهم شرًّا،كماقال تعالي{لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ}

ولم يطل الحصار طويلاً، وإنما دام ست ليال فقط، حتى قذف الله في قلوبهم الرعب، فانهزموا وتهيؤا للاستسلام وإلقاء السلاح، فأرسلوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم "نحن نخرج عن المدينة"، فوافق صلى الله عليه وسلم على أن يخرجوا منها بنفوسهم وذراريهم، وأنّ لهم ما حملت الإبل إلا السلاح، فوافقوا على ذلك.

ولحقدهم وحسدهم قاموا بتخريب بيوتهم بأيديهم، ليحملوا معهم الأبواب والشبابيك والجذوع؛ حتى لا يأخذها المسلمون، ثم حملوا النساء والصبيان على ستمائة بعير، وأسلم منهم رجلان فقط، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وكانت أموالهم وديارهم خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يضعها حيث يشاء. فكانت عبرة لأولي الأبصار .

## سنـة الأجـــل

**قضت سنة الله تعالى أن هلاك الأمم الظالمة له أجل محدود :**

وهلاك الأمم الظالمة له أجل محدود ، بمعنى أن بقاء الأمة الظالمة بقاء محدود المدة إذا انقضت هذه المدة جاء أجلها فتهلك كما يهلك الإنسان ويموت إذا حان أجله بمضي مدة عمره .

وتوضيح ذلك أن الظالم في الامة كالمرض في الإنسان يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض .

وبانتهاء هذه المدّة يحين أجل موته ، فكذلك الظلم في الأمة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها الله هي الأجل المقدر لها ، أي الذي قدره الله تعالى له بموجب سنته العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل ، أو من عوامل الهلاك كالظلم التي يظهر أثرها وهو هلالكها بعد مضي مدّة محددة يعلمها الله . قال تعالى :(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (34)) الأعراف .

قال الآلوسي في هذه الآية (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ) ، أي ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل أي وقت معين مضروب لاستئصالهم .

ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا ، أي إننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة الله تعالى في الظلم والظالمين ، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط ، فلا يمكن لأحد أن يحدده بالأيام ولا بالسنين ، وهو محدد عند الله تعالى بالساعات ولذلك قال تعالى : (فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ) .

## سنة الله مطردة في هلاك الأمم الظالمة

اقتضت سنة الله تعالي أن هلاك الظالمين مستمر مع كل ظالم في كل زمان ومكان قال تعالى : (ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ مِن شَيْءٍ لِّمَّا جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ) .

وقوله تعالى : (وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ) أي ما ظلمناهم بإهلاكنا إياهم ولكن ظلموا أنفسهم بارتكاب ما به أُهلِكوا .
وقوله تعالى : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) ، أي إن عذاب الله ليس بمقتصر على من تقدم من الأمم الظالمة ، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنّة واحدة فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك قاصر بأولئك الظلمة السابقين ، لأن الله تعالى لما حكى أحوالهم قال : (وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ) ، فبيَّن الله تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد .
فالآية تحذير من وخامة الظلم ، فلا يغتر الظالم بالإمهال .

## بقاء الدول مع الظلم وعدم بقائها مع الظلم

**سنة الله تعالى اقتضت أن تبقى الدولة مع الكفر ولا تبقى مع الظلم :**

قال تعالى : (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) . إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم ، فهذه الدولة مع كفرها تبقى ، إذ ليس من سنّته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط ، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم ، وبهذا قال المفسرون وأهل العلم ، قال الإمام الرازي في تفسيره (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك . والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين ، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح ، وعدم الفساد) .

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى : (بظلم) أي بشرك وكفر (وأهلها مصلحون) أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق . ومعنى الآية : إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط .

ـ قول ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة :

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى : (وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر

الدنيا بالعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها من خلاق أي في الآخرة وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)

## سنة تأخير عقاب الظالمين

إن من أسماء الله الحسنى (الحليم) فحلمه تعالى واسع يسع الناس جميعاً ، فلا يعجل عقوبتهم لظلمهم قال تعالى {وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (61)} النحل.

أي لو يؤاخذهم بما كسبوا ما ترك على ظهر الأرض من دابة أي لأهلك جميع دواب الأرض تبعاً لإهلاك بني آدم ، ولكن الله جلّ جلاله يحلم ويستر وينظر إلى أجل مسمى أي لا يعاجلهم بالعقوبة إذ لو فعل ذلك بهم لما أبقى أحداً4 .

**<u>وسنن الله تعالى في هلاك الظالمين واضحة في القرآن الكريم وهي تمر بأربعة</u>** مراحل وهي :ــ الإملاء - التزيين - الاستدراج - الأخذ.

## سنة الإملاء والإمهال

**<u>الإملاء أي: الإمهال.</u>**

قال سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ [الأعراف:183]

فتجد بعض الطغاة عمره أطول من عمر الفيل فلا يموت, يسفك دماء المسلمين ويقتل، ويهدم المساجد، ويمزق المصاحف وتقول: عجباً, ما أطول عمر المجرم! لماذا لا يقصم الله ظهره؟

لكن الله يقول:{ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم:42].

فهذا يكدس من الخطايا مثل الجبال, ويكون عنده من الذنوب وسجلات السيئات مثل الجبال، قال تعالى: إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ * مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاء { [ابراهيم:42-43].

وقد ورد في الحديث الصحيح: {إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته} حتى تجد بعض الظلمة من أنعم الناس, وأقواهم صوتاً وصولةً وقوةً وسمعةً، وتجد بعض المؤمنين مضطهدين, وبعض الأولياء في خيمة وجوع وعطش وعري، وذاك المجرم متسلط, فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر, حتى إذا أخذه لم يفلته, قال تعالى:{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} **[هود:102].**

فهذه مسألة لا تغيب مسألة الإملاء وهي أن الله يملي ويمهل للظالم ويعطيه من طول العمر, حتى سمعنا من بعض الناس من يقول عن الطغاة في الشرق والغرب: لماذا يتركهم الله هذه السنوات؟ الواحد بلغ الثمانين لماذا لا يأخذه الله ليستريح الناس منه؟ حكمة بالغة وقدرة من الله، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيراً(20)} [الفرقان].

وقال الله تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(178)) آل عمران.

يقول صاحب الظلال رحمه الله "وفي هذه الآية يصل السياق إلى العقدة التي تحيك في بعض الصدور، والشبهة التي تجول في بعض القلوب، والعتاب الذي تجيش به بعض الأرواح، وهي ترى أعداء الله وأعداء الحق متروكين لا يأخذهم العذاب، ممتعين في ظاهر الأمر بالقوة والسلطة والمال والجاه! مما يوقع الفتنة في قلوبهم وفي قلوب الناس من حولهم ومما يجعل ضعاف الإيمان يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يحسبون أن الله حاشاه يرضى عن الباطل والشر والجحود والطغيان فيملي له ويرخي له العنان، أو يحسبون أن الله سبحانه لا يتدخل في المعركة بين الحق والباطل، فيدع للباطل أن يحطم الحق، ولا يتدخل لنصرته، أو يحسبون أن هذا الباطل حق، وإلا فلِمَ تركه الله ينمو ويكبر ويغلب؟

أو يحسبون أن من شأن الباطل أن يغلب على الحق في هذه الأرض، وأن ليس من شأن الحق أن ينتصر، ثم يدع المبطلين الظلمة الطغاة المفسدين يلجُّون في عتوهم ويسارعون في كفرهم ويلجُّون في طغيانهم، ويظنون أن الأمر قد استقام لهم، وأن ليس هنالك من قوة تقوى على الوقوف في وجههم!

وهذا كله وَهْمٌ باطل، وظنٌّ بالله غير الحق، والأمر ليس كذلك، وها هو ذا الله سبحانه وتعالى يحذر الذين كفروا أن يظنوا هذا الظن.

وهذه السُّنَّة الإلهية تعمل عملها في هذه الأوقات وذلك في معسكر أهل الكفر والنفاق وبخاصة أولئك الذين بلغ بهم الكِبْر والغطرسة والظلم والجبروت مبلغاً عظيماً، ونراهم يزدادون يوماً بعد يوم في الظلم والبطش والكبرياء ومع ذلك نراهم ممكنين ولهم الغلبة الظاهرة كما هو الحاصل الآن في معظم دول الكفر والطغيان، حيث ظلمت وطغت وقالت بلسان حالها ومقالها: "من أشد منا قوة".

وقد يحيك في قلوب بعض المسلمين شيء وهم يرون هؤلاء الكفرة يبغون ويظلمون ومع ذلك هم متروكون لم يأخذهم الله بعذاب من عنده، لكن المسلم الذي يفقه سنة الله عز وجل ويتأملها ويرى آثارها وعملها في الأمم السابقة لا يحيك في نفسه شيء من هذا لأنه يرى في ضوء هذه السنة أن الكفرة اليوم وعلى رأسهم الدول الغربية وحلفاؤهم هم الآن يعيشون سُنَّة الإملاء والاستدراج التي تقودهم إلى مزيد من الظلم

والطغيان والغرور، وهذا بدوره يقودهم إلى نهايتهم الحتمية وهي الهلاك والقصم في الأجل الذي قد ضربه الله لهم.
قال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (59)) الكهف.
والله عز وجل لا يستجيب لعجلة المستعجلين، بل له الحكمة البالغة والسنَّة الماضية التي إذا آتت أكلها أتى الكفرة ما وعدهم الله تعالى لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون.
ومن حكمة الله عز وجل في سُنَّة الإملاء للكافرين أن يمكنهم في هذا الإملاء ليزدادوا إثماً وطغياناً يندفعون به بعجلة متسارعة إلى نهايتهم التي فيها قصمهم ومحقهم، وقد بدت بوادر المحق في الدول الغربية فيما يتعلق بحقوق الإنسان التي
يتشدقون بها وغير ذلك من عوامل المحق والقصم، ولكن الله عز وجل بمكره لهم قد أغفلهم عن سوءاتهم وعما يترتب على حماقاتهم وطغيانهم ليحق عليهم سنته سبحانه في القوم الكافرين.
كما أن من حكمته سبحانه في إملاء الكافرين وظلمهم وتسلطهم على المسلمين تحقيق لسُنَّة الابتلاء والتمحيص للمؤمنين.
ففي الإملاء للكفار وتركهم يتسلطون على المسلمين في مدة من الزمن ابتلاء وتمحيص للمؤمنين، حتى إذا آتت سنَّة الابتلاء أُكُلَها وتميز الصف المؤمن الذي خرج من الابتلاء نظيفاً ممحصاً عندئذ تكون سُنة الإملاء هي الأخرى قد أشرفت على نهايتها فيحق القول على الكافرين ويمحقهم الله كرامة للمؤمنين الممحصين الذين يُمكّن الله لهم عز وجل في الأرض ويخلفون في الأرض بعد محق الكافرين.
قال تعالى: (وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ). فذكر الله سبحانه التمحيص قبل المحق ولو محق الله الكفار قبل تهيؤ المؤمنين الممحصين فمن يخلف الكفار بعد محقهم؟
لذالك قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ(178) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179)) آل عمران.

## سنة التزيين

قال تعالي {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (36) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ (37)} غافر .

وقال تعالي{ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ۖ(8)}[فاطر].

وقال تعالي(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43)) الأنعام.

يرى أي ظالم أنه مصيب، وأنه فاتح، وأنه الرجل الذي لا أحد مثله، وأنه ذخر للإسلام، قال تعالى: أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً [فاطر:8]

وقال تعالي{وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (108)}الأنعام

اسمع إلي أي ظالم أو طاغية وهو يتكلم؛ كأنه المصلح العام الذي يغار علي الدين والمقدسات ، وكأنه منزعج من وضع المسلمين، وكأنه يسعى لمصالح العالم؛ لكن أفعاله تشهد أنه كاذب، قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ (204) وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ (205) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (206)} [البقرة].

وقال سبحانه عن فرعون الطاغية {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۖ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ (26)} غافر

## سنة الاستدراج

قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (182) وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (183)) الأعراف.

فيأتيهم الله من حيث لا يتصورون, فيأخذون الاحتياطات ويحاولون الاستقرار, لكن يأخذهم الله من مكانٍ ما ظنوا أن الله سيأخذهم منه, يقول سبحانه: {أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)} [الزخرف]

فإذا خططوا لشيء في الليل فتخطيط الله أعظم, والبرم عند العرب: لفُّ الخيط حتى يصبح شديداً, يقول الله تعالى: (فَإِنَّا مُبْرِمُونَ) [الزخرف:79] يقول: إن كان عندهم مخططات في الكواليس والسراديب تحت الأرض؛ فأخبرهم: (فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ) [الزخرف:79].
والإستدراج كما حدث مع الأمم السابقة من أمثال عاد وثمود وقوم لوط وفرعون وغيرهم ...

## سنة الأخذ

قال تعالى: قال تعالى:{ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (40)} [العنكبوت].
وقال تعالي{ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ(42) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (43) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)} الأنعام .
وعن أبي موسى رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته قال ثم قرأ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد). رواه البخاري. قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: 102].
ثم يبقى قطاف الرءوس وعلى الله قطافها, وهذا عندما يصل إلى درجة الأخذ، ينتهي الإنسان حتى يبلغ من الطغيان والفجور مبلغاً لا يمكن أن يصبر عليه ولا يرضى أبداً، فيزلزله الله زلزلة، ويمزقه تمزيقاً، ويلعنه لعنة دائمة معه.

## سنة الجزاء من جنس العمل

إن الله تعالي قضى بحكمته أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، ليُعرِّفَ العبادَ أنه رحيم حكيم ، حَكَم عدل.
فالجزاء من جنس العمل : سُنةٌ إلهيةٌ وقاعدة عدليةٌ .
تعني هذه السنة أن جزاء الإنسان من جنس عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ﴿ جَزَاءً وِفَاقًا ﴾، وكما تُجازِي تُجازَى. ( الجزاء من جنس العمل ) قاعدةٌ شرعيّةٌ

عدليةٌ (ولا يظلم ربك أحدا )
إن الجزاء من جنس العمل سُنّة من سنن الله في خلقه، ولهذا أخبرنا ربنا تبارك وتعالى في كثير من الآيات القرآنية أنه يعامل خلقه بجنس عملهم، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ، فقال سبحانه وتعالى: {لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً} [النساء:123].
وقال تعالى وتقدّس: {فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} [الزلزلة:7-8].
وقال الحق جلّ في عُلاه: {إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس:44].
وقد نصّ الله تعالي على ذلك في أكثر من مئة موضع، نحو قوله تعالى: {فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً} [الفتح:10]، وقوله جل ذكره: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ} [يونس:23]،
وقوله جل ثناؤه: {وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر:43]،
وقوله عزّ سلطانه: {وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الصافات:39]،
وقوله جل شأنه: {وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا} [يونس:27]،
وهذا مظهر من مظاهر العدل الإلهي في الدنيا والآخرة.
ومن مظاهر هذه السنة الإلهية
أ. تسليط الظالمين بعضهم على بعض:ـ
يقول الحق جل وعلا:{وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأنعام:129].
قال ابن كثير رحمه الله : أي نسلط بعضهم على بعض ، وننتقم من بعضهم ببعض جزاءً على ظلمهم وبغيهم .
وجاء في تفسيرها : نسلط بعض الظلمة على بعض فيهلكه ويذله . وهذا تهديد للظالم ان لم يمتنع من ظلمه سلط الله عليه ظالما آخر . ويدخل في الآية جميع من يظلم نفسه أو يظلم الرعية أو التاجر يظلم الناس في تجارته .
وقال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية : " ألاية تدل على أن الرعية متى كانوا ظالمين فالله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم ، فان أرادوا أن يتخلصوا من ذلك الأمير الظالم فليتركوا الظلم .
وقال الآلوسي في تفسير هذه الآية : " وقد استدل بالآية على أن الرعية اذا كانوا ظالمين فان الله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم .
وقال فُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ: «إذَا رأيتَ ظالِمًا ينتقِمُ من ظالِمٍ فقِفْ، وانظُرْ فيه مُتَعَجِّبا!».
وعن مالك بن دينار قال: قرأتُ في الزَّبُور: «إنِّي أنتقِمُ منَ المنافِقِ بالمنافِقِ، ثم أنتقِمُ

من المنافِقين جميعًا» قال: ونظير ذلك في كتاب الله تعالى ﴿وكَذَلِكَ نُوَلِّي﴾ الآية.
وقال المأمونُ الخليفةُ العباسِيُّ لبعضِ وُلَاته: «لَا تَظْلِمْ لِي فَيُسَلِّطَنِي اللهُ عَلَيْكَ».
وقد قيل: **وما من يد إلا يدُ اللهِ فوقَـها وما من ظالمٍ إلا سُيبلى بظالم.**
أما سمعتم خبر البرامكة الذين كانوا وزراء بني عباس فأعطاهم الله المال والذهب حتى طلوا قصورهم بماء الذهب لكنهم ضيعوا أوامر الله في المعاصي داخل القصور غناء وخمر ومجون وتضييع للصلاة وزنا وفواحش فأخذهم علام الغيوب الذي يمهل ولا يهمل إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون فسبحان الله ما أقدره ولا إله إلا الله ما أعظمه وما أجله .
فسلط الله عليهم أقرب الناس إليهم فقتل شبابهم وشيوخهم أودعهم السجن وحبس النساء في غرف. قيل ليحيي البرمكي ما أنزلكم هذه المنزلة وقد كنتم وكنتم فقال وهو يبكي دعوة مظلوم غفلنا عنها وما غفل عنا علام الغيوب .
الجزاء من جنس العمل قاعدةٌ مُرغِّبة مُرهِّبة ، لها آثارٌ عظيمةُ النفع في إصلاح الدين والدنيا، وهي دافعة للأعمال الصالحة، ناهية عن الظلم، مواسية للمظلومين.
والمسلمون بحاجةٍ ماسةٍ إلى فهم هذه القاعدة وإلى اليقظة والحذر من التغافل عن عواقبها.
لو وضع المسلم هذه القاعدة نُصب عينيه، لزَجَرتهُ عن كثير من الذنوب والمعاصي ، ولتخيل دائماً ما ينتظره مِن جزاءٍ على أعمالِهِ خيرها وشرِّها.
ولو استحضر الظالم عاقبة ظلمه، وأن الله سيسقيه من نفس الكأس عاجلاً أو آجلاً، لكَفَّ عن ظلمه وتاب إلى ربِّه؛ ولو أن هذا الفاجر المستهتر الذي يعبث بحُرمات الناس وينتهك أعراضهم، علِمَ أن عدل الله قد يقضي بأن يُنتهك عِرضُه ، لتاب وعَفَّ عن أعراض الناس .

## سنة الفتنة والإبتلاء

**معنى الفتنة :**
جاء في لسان العرب : جماع معنى الفتنة : الابتلاء والامتحان والاختبار وأصلها مأخوذ من قولك : فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد أو إذا أدخلته النار لتنظر ما جودته .
والفتنة : الإحراق ، الإثم ، اختلاف الناس بالآراء ، الجنون ، الإزالة ومنه قوله تعالى : (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك) أي يميلونك ويزيلونك عن الذي أوحينا إليك .
والفتنة : الكفر ، كما في قوله تعالى : (والفتنة أشد من القتل) ،

والفتنة : ما يقع بين الناس من القتال .
والفتنة : القتل كما في قوله تعالى : (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) .
وقوله صلى الله عليه وسلم : ( أرى الفتن خلال بيوتكم ) بأن يكون القتل والحروب والاختلاف الذي يكون بين فرق المسلمين . ويكون بما يبلون به من زينة الدنيا وشهواتها فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها .
قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . والفتنة : الإعجاب بالشيء ، والاضطراب وبلبلة الأفكار ، والعذاب والضلال . وفتنه : رماه في شدّة ليختبره .
وفتن فلاناً : عذّبه ليحوله عن رأيه أو دينه .
وفي المفردات في غريب القرآن : أصل الفتن إدخال الذهب النار لتظهر جودته عن رداءته . وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فتنة فيستعملون هذا اللفظ فيه نحو قوله تعالى : (ألا في الفتنة سقطوا) وتارة يستعملوا (الفتنة) في الاختبار نحو قوله تعالى : (وفتناك فتوناً) .
وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يُدْفع إليه الإنسان من شدّة ورخاء وهما في الشدّة أظهر معنى وأكثر استعمالاً قال تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . وقال تعالى في الشدّة : (فتنتم أنفسكم) أي أوقعتموها في بلية وعذاب وقوله تعالى : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) فقد سماهم هاهنا فتنة اعتباراً بما ينال الإنسان من الاختبار بهم . وقوله تعالى : (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) أي لا يختبرون فيميز خبيثهم من طيبهم .

**- معنى الابتلاء :**

جاء في لسان العرب: بلوت الرجل وابتليته : اختبرته . وابتلاه الله : امتحنه .
والاسم : البلوى والبلاء . والبلاء : الاختبار يكون في الخير والشر .
وفي المعجم الوسيط ابتلاه : جربه وعرفه . والبلاء : الحادث ينزل بالمرء ليختبره .
وفي النهاية لابن الأثير : الابتلاء في الأصل الاختبار والامتحان ، يقال : بلوته وأبليته وابتليته . والمعروف أن الابتلاء يكون في الخير والشر معاً من غير فرق بين فعلهما ومنه قوله تعالى : (ونبلوكم بالشر والخير فتنة)
وفي المفردات في غريب القرآن : بلوته : اختبرته . وأبليت فلاناً إذا اختبرته .
وسمي التكليف بلاء من أوجه (أحدها) أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان فصارت من هذا الوجه بلاء . (والثاني) أنها اختبارات ولهذا قال عزّ وجل : (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) .
(والثالث) أن اختبار الله تعالى للعبد تارة بالمسار ليشكر وتارة بالمضار ليصبر فصارت المحنة والمحنة جميعاً بلاء .

الخلاصة في معنى الفتنة والابتلاء :
وخلاصة القول في الفتنة والابتلاء : هو الاختبار والامتحان للإنسان في الشدّة والرخاء .
وكذلك لفظ البلاء مع زيادة في المعنى الذي نريده بلفظ (البلاء) وهو الحادث الذي فيه شدّة ومشقة وينزل بالمرء لغرض اختباره وامتحانه به .

**ـ من سنة الله الابتلاء بالشر والخير :**

وقد قضت سنة الله في الابتلاء أنه يمتحن عباده بالشر والخير أي يختبرهم بما يصيبهم مما يثقل عليهم كالمرض والفقر والمصائب المختلفة كما يخبرهم بما ينعم عليهم من النعمة المختلفة التي تجعل حياتهم في رفاهية ورخاء وسعة العيش كالصحة والغنى ونحو ذلك . ليتبين بهذا الامتحان من يصبر في حال الشدّة ومن يشكر في حال الرخاء والنعمة ، قال تعالى { كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (35)} الأنبياء
أي نختبركم بما يجب فيه الصبر من البلايا والمصائب والشدائد كالسقم والفقر وغير ذلك مما يجب فيه الصبر . كما نختبركم بما يجب فيه الشكر من النعم كالصحة والغنى والرخاء ونحو ذلك فيقوم المنعم عليه بأداء ما افترضه الله عليه فيما أنعم به عليه .
وكلمة (فتنة) في قوله تعالى : (وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً) أي ابتلاه فهي مصدر مؤكد لقوله تعالى : (وَنَبْلُوكُم) من غير لفظه . (وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ)أي فنجازيكم على حسب ما يوجد منكم من الصبر أو الشكر.
فاختبار الله تعالى لعباده تارة بالمسار ليشكروا وتارة بالمضار ليصبروا ، فالمحنة والمنحة جميعاً بلاء ، فالمحنة مقتضية للصبر والمحنة مقتضية للشكر ، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر ، فالمنحة أعظم البلاءين .
وبهذا النظر قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه بلينا بالضراء فصبرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر .
وقضت سنة الله في الابتلاء أنه يمتحن عباده بالشر كما يمتحنهم بالخير ، ومن امتحانه لهم بالشر إصابتهم بأنواع البلايا والمصائب والشدائد وما يشق على نفوسهم ، ومن هذا النوع من الاختبار ما ذكره الله تعالى في كتابه العزيز :
{وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (155) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (156) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ(157)} البقرة.

أخبرنا الله تعالى أنه يبتلي عباده أي يختبرهم فتارة بالسراء وتارة بالضراء كالمذكور في هذه الآيات وهو الخوف والجوع ونقص من الأموال ، أي ذهاب بعضها ، ونقص في الأنفس كموت الأصحاب والأقارب والأحباب ونقص في الثمرات فلا تثمر الحدائق والمزارع والأشجار كعادتها . فالذين يصبرون في هذه البلايا ويقولون : (إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) ، أي يقولون ذلك عن علم ومعرفة بأنهم ملك لله يتصرف في عبيده بما يشاء وعلموا أنه لا يضيع عنده مثقال ذرّة من خير ، ومن الخير صبرهم ، وعلموا أنهم راجعون إليه تعالى فيجازيهم على صبرهم يوم القيامة ، هؤلاء الصابرون يبشرهم الله تعالى بما أخبرنا به وهو : (أُولَـئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ) أي ثناء من الله ورحمة : (وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ) أي مهتدون إلى الطريق الصواب حيث استرجعوا وسلّموا الأمر لله تعالى .

**ـ من سنّة الله في الابتلاء امتحان المؤمنين بالشدائد :**

قال تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ۖ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214)) البقرة .

قال أكثر المفسرين نزلت هذه الآية في معركة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدة والبرد وسوء العيش وأنواع الشدائد .

وقال بعض المفسرين نزلت الآية تسلية للمهاجرين حين تركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين وآثروا رضا الله ورسوله ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تطييباً ، واستدعاهم الله تعالى إلى الصبر ووعدهم على ذلك بالنصر .

(الْبَأْسَاء) الشدّة تصيب الإنسان في غير نفسه وبدنه كأخذ المال والإخراج من الديار وتهديد الأمن ومقاومة الدعوة .

(وَالضَّرَّاء) ما يصيب الإنسان في نفسه كالجراح والقتل . (وَزُلْزِلُوا) أي أزعجوا إزعاجاً شديداً بأنواع البلاء ، وخوفوا من الأعداء .

ومعنى الآية : أم ظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن تختبروا وتُمتحنوا كما امتحن الذين من قبلكم من الأمم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا أي خوفوا من الأعداء تخويفاً شديداً وامتحنوا امتحاناً عظيماً ، حتى إن الرسول صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه أخذوا يستفتحون على أعدائهم ويدعون الله بقرب الفرج والمخرج من الضيق الذي هو فيه .

وكان الجواب لدعاء المؤمنين أن قال لهم الله : (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ) .

وفي تفسير القرطبي : وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية هو من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أي إن الجهد قد بلغ بهم مبلغاً عظيماً حتى استبطؤوا النصر فقال تعالى : (أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ) .

ويكون ذلك من قول الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على معنى طلب استعجال النصر لا على الشك والارتياب في حصول النصر .
وقالت طائفة من المفسرين : في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله؟ فيقول الرسول : ألا إن نصر الله قريب . وإنما قُدِمَ ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم في الآية لمكانته وعلو منزلته ثم قدم قول المؤمنين لأنه هو المتقدم في الوقوع من حيث الزمان ، أي قالوا ذلك ثم أجابهم الرسول صلى الله عليه وسلم بان نصر الله قريب .
وفي تفسير الرازي : ولقول هذه الطائفة نظائر في القرآن الكريم ، ومن ذلك قوله تعالى : (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله) أي لتسكنوا في الليل ولتبتغوا من فضله في النهار .
وفي تفسير المنار : يقول الأستاذ الإمام (محمد عبده) إن هذه الآية عتاب لهم أي للصحابة الكرام فكيف لا ينكر المسلم على نفسه مثل هذا وهو يعلم أنه دون الصحابة الكرام إيماناً وإسلاماً ودعوة إلى الحق وصبراً على المكاره في سبيل الله تعالى .
لماذا لا ينكر على نفسه وعلى من يراه من أمثاله الذين يقولون آمنا بالله ، فإذا أوذِي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله وآثر ما عند الناس على ما عند الله .

**ـ امتحان المؤمنين بالجهاد :**

ومن سنته تعالى امتحان عباده المؤمنين بالجهاد بأن تتهيأ ظروفه وأسبابه فيجب على المؤمنين فيظهر عند ذلك من يقوم بهذه الفريضة ويصبر على مقتضياتها فيستحق بفضل الله وبحسب وعده وسنته الجنة ، قال تعالى : (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ) .
قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه الآية : أحسبتم أن تدخلوا الجنة ولم تمتحنوا بالقتال والشدائد؟ أي لا يحصل لكم دخول الجنة حتى تمتحنوا ويرى الله منكم المجاهدين في سبيله والصابرن على مقاومة الأعداء .

**ـ امتحان المؤمنين بأنواع الأذى :**

قال تعالى : (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)) آل عمران.
إن من سنة الله في عباده المؤمنين الداعين إليه المجاهدين في سبيله أن يبتلوا بأنواع البلاء ، يبتلوا في أموالهم بما يطلب منهم من الإنفاق منها في سبيل الله ، وبما يقع فيها من الآفات . ومن البلاء الذي يمتحنون به البلاء في أنفسهم بالقتل والجرح

والأسر في قتال العدو ويلحق به الحبس في زماننا حيث يسجن الطغاة الظلمة المؤمنين الدعاة إلى الله تعالى
ومن البلاء الذي يبتلون به على وجه الامتحان وحسب مقتضيات سنة الله تعالى في الداعين إليه المجاهدين في سبيله ما يسمعون من اهل الكتاب والمشركين وغيرهم من الكفرة من أنواع الأذى القولي كالطعن في الإسلام وفي الدعاة إليه وبإلصاق التهم الباطلة بهم لصدّ الناس عنهم وعن دعوتهم .
و من عزائم الأمور الصبر على هذا الأذى والالتزام بالتقوى ، فهذا مما يجب أن يعزم عليه المؤمنون من الأمور التي تزهق الباطل وتنصر الحق وأهله .

**ـ أشد الناس بلاء الانبياء ثم الأمثل فالأمثل :**

أ ـ أخرج الإمام الترمذي في جامعه عن مصعب بن سعد عن أبيه قال ، قلت : يا رسول الله ، أي الناس أشد بلاءً؟ قال : (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل . يُبلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صُلباً اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رقّة ابتلي على قدر دينه ، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة)
ب ـ وفي حديث آخر أخرجه الطبراني في معجمه الكبير عن أخت حذيفة بن اليمان فاطمة أو خولة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل) .

## مراتب الإبتلاء

الابتلاء على خمسة مراتب :ــ
- ابتلاء(كشف)
- ابتلاء (رفع)
- ابتلاء (دفع)
- ابتلاء (ردع)
- ابتلاء قصم وقطع)

فالكشف يكون لكشف قوة الايمان والكشف عن صفات الصبر والرضا الى غير ذلك كابتلاء الصالحين
والرفع للدرجات فقد يكون عمل العبد لا يساوى درجة عالية بالجنة فيبتلى ليصبر ويرضى لينال تلك الدرجة
وابتلاء الدفع يكون عندما نذنب فنبتلى لندفع إلى باب التوبة ونعود لباب الجنة والدفع بعيد عن أبواب النار
وابتلاء الردع عندما يتمادى العبد فى الذنوب فيبتلى ليكون الابتلاء ردع لعلهم يرجعون الى الله
وقد مضت سنّة الله في الأمم الكافرة أن يبتليها بالبأساء والضراء عسى أن يردعها

هذا الابتلاء عن كفرها وعنادها وترجع إلى ربها ، فإن لم تفعل ابتلاها بعد ذلك بالسراء عسى أن يحملها ذلك على التوبة بعد أن لم تحملها الشدّة على ذلك ، قال تعالى{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ (94) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(95)} الأعراف.

والمعنى أن سنّة الله تعالى في الأمم التي كذبت رسلها أن الله تعالى أخذها بالبأساء وبالضرّاء أي بالشدة في أنفسهم وأبدانهم وأرزاقهم وأموالهم ، وقد فعل الله تعالى ذلك بهم لكي يتضرعوا .

وابتلاء القطع للكافرين المتكبرين الذين خلوا من الخير فيكون الابتلاء قصم وقطع دابرهم .

قال تعالي { فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (44) فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (45)} الأنعام

## الإبتلاء سنة الله في الدعوات

إن الابتلاء كما يصيب الفرد والأمة يصيب الجماعة المسلمة التي تدعو إلى الله وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فما ذكرناه من أنواع البلاء والابتلاء مما يصيب المؤمنين في جهادهم في سبيل الله يصيب الجماعة المسلمة أيضاً فيصيب أعضاءها أنواع الأذى في أموالهم بالمصادرة والاستيلاء عليها ، وفي أشخاصهم بالحبس والتعذيب وبسمعتهم بالاتهامات الباطلة ، لاسيما في زماننا الذي تنوعت فيه وسائل الدعاية لاسيما إذا كان خصم الجماعة المسلمة ذا سلطان بماله أو نفوذه أو سلطته بل وربما يكون خصمها الحكام وولاة الأمر أنفسهم . فلا بد للجماعة المسلمة أن تعتصم بالصبر والتقوى لتفوّت على خصومها ما يريدون ، قال تعالى (لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (186)) آل عمران..

**ـ الابتلاء في الدعوات تمييز وتمحيص :**

وليكن معلوماً للجماعة المسلمة أن ما يصيبها من مفردات الامتحان الصعب هو ما جرت به سنّة الله تعالى في إعداد الجماعات المسلمة التي تحمل الدعوة إلى الله تعالى ، وإن في هذا الامتحان الشاق خيراً كثيراً للجماعة نفسها لأنه يتميز بهذا الامتحان القوي من الضعيف من أعضائها والصادق في إيمانه من الكاذب أو المنافق قال تعالى : (مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ

مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (179))آل عمران .

والمعنى : ما كان الله ليذركم يا معشر المؤمنين على ما أنتم عليه من اختلاط المؤمن بالمنافق وأشباهه حتى يميز الخبيث من الطيب أي المنافق من المؤمن بإلقاء المحن والمصائب والقتل والهزيمة ، فمن كان مؤمناً ثبت على إيمانه وعلى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن كان منافقاً ظهر نفاقه وكفره ، (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ) أي لا يجوز أن يحصل ذلك التمييز بان يطلعكم الله على غيبه فيقول : إن فلاناً منافق وفلاناً مؤمن فإن سنّة الله جارية بأن لا يطلع عوام الناس على غيبه ، فلا سبيل لكم إلى معرفة ذلك التمييز إلا بامتحانكم بما يصيبكم من المحن والآفات حتى يتميز بذلك المنافق من المؤمن .

فتمحيص صفوف الجماعة المسلمة وتمييز أعضائها بحيث يعرف الصادق في إيمانه الراسخ فيه كما يعرف الكاذب في إيمانه أو المنافق أو الضعيف في إيمانه ، فإن هذا التمحيص والتمييز والعرفان لا يحصل إلا بابتلاء الجماعة المسلمة بالمحن والشدائد ، فالشدائد هي التي تميز القوي من الضعيف وتزيل الالتباس والخطأ بين الصادقين وغيرهم .

ولا شك أن هذا التمايز ضروري جداً للجماعة المسلمة لانه قد ينضم إليها ويعتبر من اعضائها ويحسب عليها المؤمن الصادق والمنافق الكاذب ، والقوي في إيمانه والضعيف فيه والمخلص في انتمائه للجماعة والذي جاءها للغنيمة أو للفتنة أو للتجسس أو لغير ذلك من الأغراض التي ليست هي أغراض الجماعة المسلمة ، فالتمايز بين الخبيث والطيب من أعضائها ضروري جداً لها والشدائد والمحن تقوم بهذا التمييز كما تقوم النار بتمييز المعدن الأصيل من غيره .

**ـ من حكمة ابتلاء الجماعة المسلمة :**

ثم إن بابتلاء الجماعة المسلمة بالشدائد تعرف الجماعة وزن قوتها الحقيقية ؛ لأن الشدائد كما قلنا تمييز وتمحيص ، فبانكشاف حال المنافقين المندسين في صفوفها وانكشاف حال القادمين إليها للغنيمة والجاه أو التجسس أو غير ذلك من الأغراض الدنيوية أو الخسيسة سيكون وزن قوة الجماعة قدر وزن الذين ظهر صدقهم وإخلاصهم وثباتهم .

كما أن بالشدائد ينكشف حال أعضائها المؤمنين الضعفاء فتعرف الجماعة أن هؤلاء كانوا يزيدون في عدد أعضائها فقط ولا يزيدون في وقتها ، والمنظور إليه في قوة الجماعة هو قوتها الحقيقية وليس بمجرد عدد أعضائها .

وفي امتحان الجماعة وابتلائها بالمحن سيعرف كل عضو مؤمن مخلص صادق في إيمانه مقدار إيمانه الحقيقي ومدى عمقه في نفسه ومقدار ثباته عليه ، ومثل

هذه المعرفة مهمة جداً للعضو نفسه وللجماعة نفسها ، فقد يغالي المؤمن المخلص في تقدير إيمانه وثباته عليه وتأثيره في نفسه ويعتقد بأنه حاضر للفداء ومتطلبات الجهاد بكل شيء في سبيل الله ولا يعرف ما في نفسه من قصور وضعف وأنَّ ما كان يجول في خاطره وما كان يحس به قبل نزول البلاء بشأن الجهاد وعزمه عليه ، إنَّ ذلك كلّه كان من قبيل الأماني ، وإنّ الأماني غير ما يُعزم عليه ، وما يعزم عليه غير تنفيذه وفعله فقد تنفسخ العزائم إذا جدّ الجدّ وحقت الحقائق . والفعل نفسه قد ينقطع ولا يستمر، أو يستمر ولكن في الجو الهادىء المريح فقط وليس في الرياح العاتية والأعاصير الشديدة .

فهذه المعرفة تنفع العضو المؤمن المخلص فينكشف له حاله تماماً مما يحمله على الالتفات إلى نفسه يتأملها ويفحصها ليتعرف على أوجه الضعف فيها فيتداركها بالتقوية ، ويتعرف على ما في نفسه من كدورة ووسخ فيعمل على تنقيتها وغسلها ويزيل عنها العوائق والشوائب التي تمنع من تغلغل الإيمان في كيانه وتجعله حاضراً للفداء والجهاد على وجه الحقيقة لا على وجه الأماني والرغبات .

**<u>- من الابتلاء للجماعة المسلمة فقدُ أميرها :</u>**

وقد تبتلى الجماعة المسلمة بفقد أميرها بالموت أو القتل وهو ابتلاء شديد ، فعلى الجماعة المسلمة أن تقف الموقف الصحيح أمام هذا الامتحان الصعب وتقابله بالصبر الجميل والثبات على المعاني التي جاهد من أجلها فقيدها الغالي العزيز ، وقامت الجماعة نفسها لهذه المعاني والجهاد لأجلها ، وهي الدعوة إلى الله تعالى وإعلاء كلمة الله بإقامة شرعه في الأرض . وهذه المعاني باقية لا تزول ولا تموت بموت أميرها ولا بموت غيره فلا يجوز لها أن تضعف عن الجهاد لمصيبتها بفقد أميرها كما لا يجوز أن توقف العمل وتقعد .

ألا ترى أن جماعة المصلين في مسجد تستمر على صلاتها الجماعية ولو مات إمام مسجدها؟ فكذلك الجماعة المسلمة تستمر على عملها ولو مات أميرها .

فقد حذر الشرع الصحابة الكرام من وقف العمل والجهاد في سبيل الله لموت الرسول صلى الله عليه وسلم أو قتله فقال تعالى : (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ) .

وجاء في تفسيرها : أعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست باقية في قومها أبداً وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل ، وإن فقد الرسول بموت أو قتل فالأديان لا تزول بموت الأنبياء . ثم قال تعالى منكراً على من حصل له ضعف لموت النبي صلى الله عليه وسلم أو قتله فقال تعالى : (أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ) أي رجعتم القهقرى وقعدتم عن الجهاد ، ومن فعل ذلك فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله

الشاكرين أي الذين قاموا بطاعة الله وقاتلوا عن دينه واتبعوا رسوله حياً وميتاً.

**ـ الحذر من جلب المحن أو الحرص عليها :**

والمحن وإن كانت مما جرت به سنّة الله في ابتلاء عباده المؤمنين وفيه تمحيص لهم وتمييز بين الصادق والكاذب والخبيث والطيب كما قلنا ، وإن هذه السنّة تسري على الجماعة المسلمة ولكن حذار أن تجلب الجماعة المسلمة المحن لنفسها أي تسعى لجلبها لنفسها أو تستعجل وقوعها لها مدفوعة بالحماس لنصرة الإسلام أو

مستحضرة في نفسها أن المحن والشدائد لا بدّ منها ، وانها بدون المحن تنصب عليها تُتُّهم بالضعف والقصورفي خدمة الإسلام والعوة إليه مما يفقدها رضا الناس وثقتهم بها وتأييدهم لها وإقبالهم عليها ...

وهذا منها خطأ جسيم مرده الجهل بمعنى سنّة الله في الفتن والابتلاء أو طلبها السمعة والرياء أو تصورها الخاطىء لما به ثقة الناس ، وهو استعجال المحن لجهل الجماعة المسلمة :

وأعني بهذا الجهل جهل الجماعة المسلمة بمعنى سنّة الله في الفتنة والامتحان وما يجب أن يكون عليه موقفها تجاه هذه السنّة الربانية .

وبيان ذلك أن هذه السنّة تعني فيما تعنيه أن المحن والشدائد مما يلاقيه المؤمنون الداعون إلى الله ، ولكن لا تعني وجوب أو استحباب أو إباحة تقصد جلب هذه المحن وتعمد إيقاعها بالجماعة .

كما لا تعني هذه السنّة عدم جواز الحذر أو الوقاية من الفتن والمحن والشدائد لئلا تقع ولا تمنع من رفع المحنة إذا وقعت .

وعلى هذا الصحيح للجماعة المسلمة من هذه السنّة الإلهية في ضوء المعنى الصحيح لها هو : لا تستغرب الجماعة المسلمة ولا تندهش إذا أصابتها المحن والشدائد ، وإنها أي الجماعة غير ممنوعة من الوقاية من هذه المحن لئلا تقع وإذا وقعت فعليها أن تقابلها بالصبر الجميل مع سعيها الحثيث لرفعها لأن الشرع قد أذن أو ندب لذلك أو أوجبه عليها .

ومما يقرب إلى الأذهان فهم ما قلته أنَّ من سنن الله في خلقه إصابتهم بالأمراض بناء على سنة الله في الأسباب والمسببات أو بناء على سنته في الابتلاء ، ولكن هذا لا يعني تحريم الوقاية من الامراض ولا رفعها بالدواء إذا وقعت وأصيب بها المسلم ، فكل هذا ـ أي الوقاية من الامراض وعلاجها بالدواء مأذون به شرعاً ، وإنما تعني سنّة الله في ابتلاء الناس بالأمراض وجوب مقابلتها بالصبر الجميل والتأمل في أسبابها وهل وقعت على المصابين بها على وجه العقوبة لهم على معاصيهم فيقلعوا عنها أو أنها جاءت بسبب تقصيرهم في وسائل الحمية المشروعة فيأخذوا بالعلاج ولا يعودوا إلى تقصيرهم في الحمية من الأمراض ..

ومثال آخر يقرب إلى الأذهان فهم ما قلته أن الاستشهاد في سبيل الله مما جرت به سنّة الله في ابتلاء المؤمنين بقتال الكفار،ولكن لا تعني هذه السنة تسليم المسلم نفسه إلى الكفار ليقتلوه حتى يصير شهيداً ، وإنما تعني هذه السنة فقط النهوض إلى قتالهم وعدم القعود عن قتالهم ، وأن عليه أن يقاتلهم بأساليب القتال المشروعة مع الحذر المطلوب لئلا يقع بأيدي الكفار أسيراً أو قتيلاً ، وإن تعمد أن يأسره الكفار أو تعمد أن يقتلوه مع قدرته على أن يقاتلهم دون أن يسلم نفسه إليهم ليقتلوه فإنه يأثم في الحالتين لإعانتهم على أسره أو قتله .

ولكن إذا قاتل كما ينبغي أن يكون عليه القتال ثم جرح فإنه يصبر وإذا قتل مات شهيداً .

**ـ لا تمنوا لقاء العدو :**

وقد دلّ على ما قلته الحديث النبوي الشريف الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن عبد الله بن أبي أوفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قام في الناس فقال : (لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا).

وجاء في شرحه : قال ابن بطال : حكمة النهي أن المرء لا يعلم ما يؤول إيه الأمر وهو نظير سؤال العافية من الفتن ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : (لأن أُعافى فأشكر أحبّ إليّ من أن أبتلى فأصبر) .

وقال غيره : إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو لما فيه من صورة الإعجاب بالنفس والاتكال على النفوس والوثوق بالقوة وقلة الاهتمام بالعدو ، وكل ذلك يخالف الاحتياط والأخذ بالحزم .

وأخرج سعيد بن منصور حديثاً مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون عسى أن تبتلوا بهم) ، وقال ابن دقيق العيد : لما كان لقاء الموت من أشق الأشياء على النفوس وكانت الأمور الغائبة ليست كالأمور المحققة لم يوثق أن يكون عند الوقوع كما ينبغي فيكره التمني لذلك ، ولما فيه لو وقع من احتمال أن يخالف الإنسان ما وعد من نفسه من الثبات عند لقاء العدو .

وفي وصيته صلى الله عليه وسلم لأسامة بن زيد وقد جعله أميراً على جيش المسلمين لغزو الروم قبيل وفاته عليه الصلاة والسلام بأيام ، قال له : (ولا تمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا : اللهم اكفناهم واكفف بأسهم)

## سنة الله في الترف والمترفين

**معنى الترف والمُتْرف :**

جاء في لسان العرب : الترف : التنعم . والترفه النعمة . وأترفته النعمة أي أطغته . والمُترَف : هو الذي قد أبطرته النعمة وسعة العيش . والمترف : المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها . ورجل مُترف : مُوسَّع عليه .

وفي مفردات الراغب الترف : التوسع في النعمة .

**ثلاث صفات للترف والمترف :**

ومن صفات الترف والمُترف في اللغة يتبين أن لهما ثلاث صفات هي :

أولاً : الترف : بطر النعمة والمترف هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش .

ثانياً : الترف الطغيان بسبب النعمة . والمترف هو الذي أطغته النعمة .

ثالثاً : الترف : التنعم والتوسع في ملاذ الدنيا . والمترف هو المتنعم المتوسع في ملاذ الدنيا وشهواتها .

**من عادة المترفين مسارعتهم فى تكذيب الحق ورده :**

ومن عادة المترفين لما يفعله فيهم الترف من بطر النعمة وانغماس في الملذات والشهوات انهم يسارعون قبل غيرهم في تكذيب رسل الله ورد الحق الذي جاؤوا به استدلالاً باطلاً بما هم عليه من كثرة المال والاولاد وسعة الجاه والسلطان وكثرة الأتباع وعلو منزلتهم عند الناس قال تعالى : (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (34) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (35) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (36) ) سبأ

فهذه الآيات الكريمة تبين عادة مطردة للمترفين في موقفهم من رسل الله وهي تكذيبهم لهم ورد ما جاؤوا به من ربهم تعالى ، فلم يبعث الله رسولاً في قرية إلا كذبه مترفوها وهم أولو الحشمة والنعمة والثروة والرياسة4 .

وتخصيص المترفين بالتكذيب لأنهم في الأغلب أول المكذبين للرسل عليهم السلام لما شغلوا به أنفسهم من زخرفة الدنيا وما غلب على قلوبهم منها فهم منهمكون في الشهوات ومستهينون بمن لم يظفر منها ما ظفروا هم به .

أو إنما نسب القول بتكذيب الرسل إلى المترفين مع أن غيرهم أيضاً قالوا : (إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ) ، لأن الأغنياء المترفين هم الأصل في ذلك القول ، ألا ترى أن الله تعالى قال عن الذين استضعفوا إنهم قالوا للمستكبرين : (لولا انتم لكنا مؤمنين) .

**حجتهم في التكذيب :**

أما حجتهم في التكذيب ـ تكذيب رسل الله ـ فهو ما حكاه الله عنهم بقوله تعالى : (وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ) أي نحن أكثر منكم أموالاً وأولاداً أو إن أموالنا وأولادنا كثيرة جداً وما نحن بمعذبين بشيء من أنواع العذاب الذي يكدر علينا لذة كثرة الأموال والأولاد من خوف الملوك والأمراء والحكام وقهر الأعداء وعدم نفوذ كلمتنا في الناس ونحو ذلك من المكدرات .

وحاصل قول أولئك المترفين وحجتهم : ادّعاؤهم بأنهم في نعمة لا يشوبها نقمة ، وهذا ـ في زعمهم ـ دليل كرامتهم على الله عز وجل ورضاه عنهم ، وانه لو كان ساخطاً عليهم لشركهم لما أنعم عليهم بهذه النعم . وقد ردّ الله عليهم هذه الحجة بقوله تعالى : (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) أي يبسط الرزق لمن يشاء الله بسط الرزق له ، ويضيقه على من يشاء ، فربما يوسع الله سبحانه على العاصي ويضيق على المطيع وربما يعكس الأمر وربما يوسع عليهما معاً وقد يضيق عليهما معاً ، وقد يوسع على شخص مطيع أو عاصٍ تارة ويضيق عليه أخرى يفعل كلاً من ذلك حسبما تقتضيه مشيئته تعالى وحكمته ولكن أكثر الناس لا يعلمون حكمة ما يفعله الله من البسط والتضييق في الرزق على عباده.

**منهج المترفين في الحياة :**

المترفون لا يهتمون إلا بملاذ الدنيا وشهواتها وجمع المال لذلك ، ولا يهمهم ما يكون في الناس من منكرات فهي لا تقلقهم ولا ينهون عنها لأن انشغالهم واهتمامهم بما يجلب لهم الملذات فقط ولو كان ذلك على حساب الآخرة ونعيمها قال تعالى : (فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ (116) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117) هود. وقوله تعالى : (وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُوا) أراد بالذين ظلموا : تاركي النهي عن المنكرات ، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الرياسة والسعي لها وجمع الثروة وطلب العيش الهنيء ، ورفضوا ما وراء ذلك مما ينفعهم في الىخرة ونبذوه وراء ظهورهم.

**موقف المترفين من الجماعة المسلمة وموقفها منهم :**

وإذا كان من عادة المترفين رد الحق وتكذيب الرسل ومنهجهم في الحياة الانغماس في الشهوات والاهتمام بالترف والعيش الرغيد ولا تقلقهم منكرات المجتمع ، فمن البديهي أن يكون موقفهم من الجماعة المسلمة الصدود عنها ورد ما تدعو إليه وتنفير الناس عنها ، لأن دعوتها ، وهي الدعوة إلى الإسلام تظهر زيفهم وضلالهم

فعلى الجماعة المسلمة ان تصبر على تكذيبهم ومعاداتهم وما يكيدونه لها ، وأن تدخل موقفهم هذا في حسابها ، ولا تعجب منه لأن الترف كما يقول صاحب الظلال رحمه الله تعالى : (يغلظ القلوب ويفقدها الحساسية ويفسد الفطرة ويغشيها فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى وتصر على الباطل ولا تتفتح للنور ..) .

وربما احتج المترفون في صدودهم عن الجماعة وصدهم للناس عنها وردهم لدعوتها بما احتج به أسلافهم من كثرة المال وما يولده من كثرة الأتباع وسعة الجاه والمكانة في المجتمع ، فعلى الجماعة المسلمة أن ترد عليهم بما ذكرناه من رد القرآن عليهم وان تصبر عليهم فإن ما تلقاه منهم هو بعض ما جرت به سنة الله في ابتلاء الدعاة إلى الله تعالى .

**ـ جزاء المترفين :**

وقد مضت سنة الله في المترفين الذين أبطرتهم النعمة فكذبوا رسل الله وردوا دعوة الله أن يهلكهم ويذيقهم العذاب في الدنيا كما يذيقهم العذاب في الآخرة ، قال تعالى : (وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (11) فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ(14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (15)) الأنبياء.

وجاء في تفسير هذه الآيات : إن أولئك القوم الظلمة المترفين الذين أبطرتهم النعمة وأطغتهم فردوا الحق الذي جاءهم من ربهم فظلموا أنفسهم بذلك وظلموا غيرهم فاستحقوا العذاب ، قيل لهم على وجه التهكم بهم لما رأوا مقدمات العذاب : (لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن الطيبة) .

**ـ هلاك الأمة بفسق مترفيها :**

قال تعالى : (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (16))الإسراء .

وجاء في تفسيرها : وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها أي متنعميها وجبّاريها وملوكها ففسقوا فيها فحق عليها القول فأهلكناها .

وإنما خص الله تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال ، وما وقع من سواهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم ، فكان توجه الأمر إليهم آكد .

# سنة التغيير

قال الله تعالى:{ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ(11)] [الرعد]
وقال تعالي{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ(53)} [الأنفال:53].

إذاً التغيير من الأمن إلى الخوف، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الوحدة إلى الشتات، ومن القوة إلى الضعف، ومن النصر إلى الهزيمة، ومن حال إلى حاله، هو بإذن الله تعالى، بسبب سنة حقت على هؤلاء القوم، فهم غيرَّوا فغيرَّ الله تعالى ما بهم، كما قال الشاعر:

**لو أَنصفوا أُنصفوا؛ لكن بغوا فبغى عليهم الدهر بالأرزاء والنوب**

وقد ذكر الله تعالى عدداً من القصص منها قصة سبأ مثلاً وذكر ما كانوا فيه: لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ [سبأ:15-17]. إذاً حقت عليهم سنة من سنن الله تعالى.

كما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم قصة الثلاثة الأبرص والأقرع والأعمى، وكيف تغيرت أحوالهم، من حسن إلى قبيح، ومن قبيح إلى حسن بسبب أعمالهم وهذه القصة باختصار وهي في الصحيحين: {أن النبي عليه الصلاة والسلام ذكر أن ثلاثة من بني إسرائيل أو أراد الله تعالى كما في الرواية الأخرى في الصحيح أن يبتليهم، فجاء مَلَكٌ في صورة إنسان إلى الرجل الأول، وقال له: أي شيء أحب إليك؟

وكان أقرع، فقال: أن يذهب عني هذا الذي قدرني الناس به ويعود إليَّ شعر حسن، فقال: أي المال أحب إليك؟

قال: الإبل أو البقر، وأتى إلى الأبرص، وقال: يذهب عني هذا الذي قذرني الناس به، ويعود لي جلد حسن، وسأله أي المال احب إليك؟

قال: الإبل أو البقر، والثالث أعمى قال: أن يرد الله عليَّ بصري قال: أي المال أحب إليك؟

قال: الغنم فذهب عنهم ما فيهم من الآفات وأعطاهم الله تعالى من المال ما أعطاهم، إذاً هذا التغيير حكمة لله تعالى وبعد ذلك جاء هذا الملك في نفس الصورة إلى الأول، وذكَّره بحاله، وقال: أريد شيئا أتبلغ به، قال: إنما ورثت هذا كابراً عن كابر، والحقوق كثيرة، قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت! وجاء للثاني فرد عليه نفس الأول كذلك، وجاء للأعمى فقال: نعم! قد كنت أعمى فرد الله عليَّ

بصري، وقد كنت فقيراً فأغناني الله، فخذ ما شئت ودع ما شئت، والله لا أرزؤك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل، فقال: أمسك عليك مالك، فإنما أراد الله تعالى أن يبتليكم، وقد رضي الله تعالى عنك، وسخط على صاحبيك}.

جرائم خطيرة مؤذنة بفساد الأحوال

إذاً: هذه أيضاً من السنن الإلهية، فالتغيير -مثلاً- من العدل إلى الظلم، سواء ظلم النفس أم ظلم الرعية، حتى أهل الذمة ممن لا يجوز ظلمهم، فكيف بالمسلمين الذين قد يُظلمون وتضرب أبشارهم وجلودهم؟! وتؤخذ أموالهم أو يمنعون من الجهر بكلمة الحق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويحال بينهم وبينها؟! هذا الظلم هو من التغيير الذي يعاقب الله تبارك وتعالى عليه، ولهذا قال الإمام أحمد في مسنده: عن أبي قذم قال: وجد رجل في زمن ابن أبي زياد صرة من حب -من البُر- أمثال النوى -أي كبيرة جداً مكتوب فيها، هذا نَبت في زمن كان يُعمل فيه بالعدل.

إذاً: حتى ما يجده الناس من النقص هو بسبب الظلم.

كذلك التغيير من الإيمان إلى الكفر، وواقع الدولة الإسلامية كله شاهد على ذلك، وقد ذكر الله تعالى في كتابه قصة هذه القرية: قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [النحل:112] (فكفرت) وهذا هو الشاهد بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ [النحل:112].

والاتجاه المعاكس فالتغيير من الخير والسعة والسعادة والغنى والقوة إلى ضد ذلك هو بسبب أعمال الناس، كذلك العكس التغيير من الضعف إلى القوة، ومن الهزيمة إلى النصر هو بتوفيق الله تعالى بسبب عمل الناس.

**مقومات التغيير :-**

أولها: العقيدة: فالإيمان بالله تعالى يُعدّ شرطاً أوّلياً لبسط النعمة، أوبالمصطلح المعاصر: «الحضـــارة» أو الرفاهية والرخاء.

والعمل الصالح الذي يترجم هذا الإيمان إلى سلوك هو صِمَام الأمان للحفاظ على هذه النعمة أو الحضارة.

وثانيها: الإنسان: وهو محور التغيير؛ لأنه اللبنة الأساسية في بناء المجتمع، فلا بد من تزكيته وتربيته وتهييء إرادته للعمل والإبداع عن طريق شحذ قوته الداخلية: الروحية والعاطفية والنفسية والعقلية، ليمتلك رصيداً ضخماً في مجال المبادرات الحضارية.

وثالثها: الزمن: بكونه عاملاً رئيساً لإنضاج عملية التغيير، ذلك أن التغيير النوعي في المجتمع يتطلّب فترة زمنية كافية حتى يكتمل، ويؤتي ثمار يانعة سائغة.

وحتى يكون التغيير مثمراً ينبغي أن يبدأ في محتويات الأنفس بتربية المجتمع على

«مثل أعلى» يضحي من أجله، وبذا يكون المجتمع في أعلى درجات الصحة، حيث يكون الولاء لـ «المثل الأعلى»، وهو المحور الذي يتمركز حوله فكر وإرادة وسلوك الأفراد وعلاقاتهم وسياسات المجتمع، وفي هذه الحالة يتسلّم مركز القيادة الأذكياء المخلصون الذين يحسنون (فقه القيادة) واتخاذ القرارات المناسبة؛ لأن حالة القوة تولد حين يتزاوج عنصران هما: الإخلاص في الإرادة، والصواب في التفكير والعمل.

أما عندما تتشكل شبكة العلاقات في المجتمع طبقاً لمحاور الولاء الفردي والعشائري والمذهبي والحزبي، وطبقاً للدوران في فلك (الأشخاص) و (الأشياء)؛ فإن الإنسان يصبح أرخص شيء داخل المجتمع وخارجه، ويدور الصراع داخل المجتمع نفسه، ويمزقه إلى شيع وطوائف وأحزاب يذيق بعضها بأس بعض، ثم يكون من نتائج ذلك الفشلُ الذريع وذهاب الريح والسقوط الحضاري.

**<u>كيف يتم التغيير؟</u>**

يبدأ الاتجاه من النفس، وأول ما يبدأ التغيير نحو الأحسن من قناعتك أنت بفساد الحال، ولهذا يتساءل الكثيرون: لماذا الكلام عن فساد الواقع؟

فنقول: لأنه لا يمكن إصلاح الواقع- أي واقع كان- إلا بعد الاقتناع بأن الواقع فيه جوانب من الفساد لابد من إصلاحها، فأول خطوة:هي الاقتناع بفساد الحال.

وثاني خطوة: هي الاقتناع بإمكانية التغيير، أن يمكن تغيير هذا الواقع نحو الأحسن.

وثالث خطوة: هي القناعة بإمكانية أن تكون أنت، شخصياً، شريكاً في هذا التغيير، وليس غيرك، لا نريد إنساناً يقول: أنا لا حيلة لي، أو لا أستطيع، لا،نقول حاول جرب.

ورابع خطوة: هي أن تقتنع بأن الإصلاح لا يمكن أن يتم إلا وفق المنهج الشرعي.

وخامساً وأخيراً: أن تبدأ بالإصلاح ولو بخطوة واحدة، بإصلاح نفسك، وأهل بيتك أو من حولك.

## سنة الإصلاح

اقتضت سنة الله تعالي أن يكون إصلاح البلاد والعباد مسولية المصلحون من العباد وأن الإصلاح سبب في النجاة من الهلاك فقال تعالي { ( وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (117)} هود.

فالإصلاح قوام بقاء المجتمع وخيريته، لكن لا تنفك علاقته عن الصلاح ، فلا صلاح بدون إصلاح،ولا إصلاح بدون صلاح.

وقد ورد في الأثر رَوى سُفيان بن عيينة عن سُفيان بن سعيد عن مِسْعَر قال : بَلَغَنِي أَنَّ مَلَكًا أُمِر أن يَخْسِف بِقَرْيَة ، فقال : يا رَبّ فيها فُلان العَابِد ، فأوْحَى الله تعالى إليه

أن بـِه فَابْدَأ ، فإنه لَم يَتَمَعَّر وَجْهُه فيَّ سَاعَة قَط
وقال مالك بن دينار : إن الله عز وجل أمَرَ بِقَرْيَة أن تُعَذَّب ، فَضَجَّتِ الْمَلائكَة ، قالت : إنَّ فِيهم عَبدك فُلانا . قال : أسْمِعُونِي ضَجِيجَه ، فإنَّ وَجْهَه لَم يَتَمَعَّر غَضَبًا لِمَحَارِمِي ) (هو صالح في نفسه لكنه ليس مصلحا)
فان الأمم المنتصرة على أعدائها، أمم حققت نصراً داخلياً أولاً ، وحقق كل واحد من أبنائها نصراً على الصعيد الشخصي من خلال تغييره ما في نفسه .
إن الاهتمام بإصلاح الدنيا من شيمة المؤمن {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (105)} (الأنبياء) ،
ومهمة الصالحين هي العناية بالأرض والعمل على استقامة الحياة البشرية وأن يكون زمامها بيد الصالحين المصلحين، لأن ميراث الأرض للصالحين المصلحين لأن الله تعالي لا يضيع أجرهم أبدا ،كما قال تعالي { وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ(170)} الأعراف.
وفي الإصلاح صمام أمان للبشرية في الدنيا والآخرة، قال تعالى في تأمين المصلحين من الفزع يوم القيامة {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(48) } الأنعام.
فالإصلاح هو الحصن الحصين لبقاء المجتمع وتقدمه.
فعن النعمان بن بشيررضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم (مَثَلُ القَائِمِ في حُدُودِ اللَّه والْوَاقِعِ فيها، كَمَثَلِ قَومٍ اسْتَهَموا على سَفِينَةٍ، فَأَصابَ بَعْضُهم أعْلاهَا، وبعضُهم أَسْفَلَهَا، فكان الذي في أسفلها إذا استَقَوْا من الماء مَرُّوا على مَنْ فَوقَهِمْ، فقالوا: لو أنا خَرَقْنا في نَصِيبِنَا خَرقا ولَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنا؟ فإن تَرَكُوهُمْ وما أَرَادوا هَلَكوا وهلكوا جَميعا، وإنْ أخذُوا على أيديِهِمْ نَجَوْا ونَجَوْا جَميعا ) رواه البخاري
وفي الإصلاح جلب المغفرة والرحمة : قال تعالى { وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً(129) } النساء.
و إذا تركت الأمة طريق الإصلاح واتصفت بالسلبية واللامبالاة عمها الله بالعذاب والعقاب:-
قال تعالى{ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ(25)} الأنفال.
أي اتقوا فتنة تتعدى الظالم فتصيب الصالح والطالح ،الطالح لفساده وظلمه والصالح لسكوته عن المنكرات ،لأن السكوت عن الفساد يؤدي إلي عموم المفسدة وكثرة الخبث فيكون الهلاك للجميع ، فروى البخاري ومسلم عن زينب بنت جحش رضي الله عنها: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم استيقظَ يومًا من نومه فزِعًا وهو يقول: "لا

إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فُتحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا (وحلَّق بين أصبعيه السبابة والإبهام)" . فقالت له زينب رضي الله عنها: يا رسول الله! أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: "نعم؛ إذا كَثُرَ الخَبَثُ".
(فساد في كل مجالات الحياة... الديني، الاجتماعي، الأخلاقي، السياسي، الاقتصادي ، الصحي، الإعلامي)
فكيف يكثُرُ الخَبَث؟!
إنَّ المنكَر إذا أُعلِن في مجتمع، ولم يجد مَن يقف في وجهه؛ فإن سوقه تقوم، وعوده يشتد، وسلطته تَظْهَر، ورواقَه يمتد، ويصبح دليلاً على تمكُّن أهل الفساد وقوَّتهم، وذريعةً لاقتداء الناس بهم، وتقليدهم إيَّاهم، وما أحرصَ أهلَ الفساد على ذلك!
وقد قصَّ الله عزَّ وجلَّ علينا خبر بني إسرائيل حين نهاهم أن يَعْدوا في السَّبت، ولنا في تلك القصة عبرة ،
قال تعالي }وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (163) وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ(164) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (165) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (166){ الأعراف .
إذن؛ فقد أنجى الله تعالى الذين ينهَوْن عن السوء فقط، وأما البقيَّة؛ فقد عذَّبهم كلَّهم.
هذه سنَّتُه سبحانه في كل أمَّة يحقُّ عليها العذاب.
فإن لم يكن في الأمة من ينهى عن السوء والفساد؛ فلا نجاة لأحد منها،قال تعالي {فَلَوْ لا كَانَ مِنَ الْقُرُون مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّة يَنْهَوْنَ عَن الفَسَاد في الأَرْض إلاَّ قَليلاً مِمَّنْ أنْجَيْنَا مِنْهُمْ واتَّبَعَ الَّذينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فيه (116)}هود.
وفي حديث جرير: "ما من رجل يكون في قوم، يعملُ فيهم بالمعاصي، يقدِرون على أن يغيِّروا عليه، فلا يغيِّروا؛ إلا أصابهم الله بعذاب من قبل أن يموتوا".
إنَّ وجود المصلحين في أمَّة هو صمام الأمان لها، وسبب نجاتها من الإهلاك العام، فإن فُقِد هذا الصنف من الناس؛ فإنَّ الأمة -وإن كان فيها صالحون- يحلُّ عليها عذاب الله كلِّها؛ صالحها وفاسدها؛ لأنَّ الفئة الصالحة سكتت عن إنكار الخَبَث، وعطَّلت شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فاستحقَّت أن تشملها العقوبة.
وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه: أنَّه قال: أيها الناس إنَّكم تقرؤون هذه الآية:(يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ (105) ) المائدة، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إنَّ الناس إذا رأوا الظالم، فلم يأخذوا

على يديه؛ أوشك أن يعمَّهُم الله بعقاب منه".رواه أبو داود ، والترمذي والنسائي بأسانيد صحيحة .

اللعن هو الطرد من رحمة الله وتحت كنفه , كما أن رحمة الله تعم ميادين الحياة فإذا رفعها الله فسيحقق آثارها في كل الميادين , أي يأخذ اللعن كل نواحي المجتمع , بدءًا من صلاحية الأفراد وتنتهي بانهيار الحضارات , فلا تبقى لوجودها مقومات , عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلّم ( إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل انه كان الرجل يلقى الرجل فيقول يا هذا اتق ودع ما تصنع به فإنه لا يحل لك ،ثم يلقاه في الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما علموا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض )) .

وقال تعالى } لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرائيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (78).كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ(79){ المائدة.

ثُمَّ قَالَ : « كَلاَّ ، وَاللَّه لَتَأْمُرُنَّ بالْمعْرُوفِ ، وَلَتَنْهوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، ولَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أَطْراً ، ولَتقْصُرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ قَصْراً ، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّه بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » رواه أبو داود، والترمذي وقال : حديث حسن .

أما الحضارة وانهيارها وإصابتها بالطرد من كنف الله ، كم امتدت جذورها فانّ من قبلنا عبرة } وَيَا قَوْمِ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ(89) { هود.

قال تعالي }وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَا(74) { الأعراف.

**<u>الهدف السابع: أن يتعرف الدارس على أهمية معرفة السنن الإلهية وأثرها في فهم الواقع:-</u>**

**<u>1- معرفة السنن الإلهية فريضة شرعية وضرورة واقعية:</u>**

"فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب، وبين فيه ما لم يبينه في غيره ، بين فيه كثيرا من أحوال الخلق وطبائعهم والسنن الإلهية في البشر، قص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم، ومناشئ اختلاف أحوالهم، من قوة وضعف، وعز وذل، وعلم وجهل، وإيمان وكفر، ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه، ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه...

أجمل القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض، وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكر، والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره ، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده لا بما حواه من علم وحكمة".

" إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا ؛ يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه.

والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها."

**<u>2- لا نستطيع أن نفهم التاريخ ونحلل الأحداث إلا بفهم السنن الإلهية:</u>**

فمن خلال السنن الإلهية نفهم التاريخ، ونفسر أحداثه تفسيرا شرعيا سليما ينفعنا في تقييم حاضرنا وتوقع مستقبلنا ؛ وللأسف كثير من المسلمين اليوم لا يملكون القدرة على ربط النتائج بالأسباب، وكشف اللثام عن حقيقة السنن بل قد يدهشهم الواقع دون تفسير حقيقي لما سيكون في الغد من أحداث، قد تكون سعيدة أو مؤلمة.

أما أصحاب البصائر من أهل العلم فهم يعرفون عوامل البناء والأمن والاستقرار والصحة والرفاهية، وعوامل الهدم والخوف والجوع والمرض، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

فتبدل الأحوال في المجتمع من الصحة إلى السقم، ومن الغنى إلى الفقر، ومن الأمن إلى الخوف، ومن العزة إلى الذلة... مرتبط بإرادة الناس وسلوكهم وأفعالهم السلبية المخالفة لما أمر الله به.

وأسباب الاضمحلال والسقوط في مثل قوله تعالى﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾الإسراء.

إذ ربطت هذه السنة بين أمرين: بين فسق المترفين في المجتمع، وبين دمار ذلك المجتمع وانحلاله، وأهل الترف هم من سماهم القرآن الملأ وهم حاشية الملك من الأثرياء والوجهاء الذين شغلتهم أموالهم ومناصبهم عن أمر الآخرة فولوا وجوههم نحو الدنيا وجعلوها قبلتهم فكان دمارهم حتما ولزاما.

إنها سنة ماضية في كل المجتمعات التي تحيد عن منهج الله تعالى وتأبى الخضوع

لحكمه.
"والقرآن الكريم حين لفت أنظار الناس إلى أحوال الأمم السابقة وعواقب الأمم البائدة، إنما أراد بذلك أن نستخلص العبر ونستجلي العظات لبناء مجتمعات مؤمنة سليمة، قوية وعادلة.

**3- معرفة السنن والسير على هداها أخذ بأسباب النصر والتمكين والفلاح:**

لأن لله سنن في النصر والتمكين كما له سنن في التغيير والاستبدال وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة وإعراض عن هدي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الدعوة إلى الله عز وجل، الذين هم أعرف الناس بالله سبحانه، وبأسمائه وصفاته، وبالتالي فهم أعرف بسننه سبحانه وعاداته وأيامه وهم ألزم الناس لها وللسير على ضوئها، وما حلت الهزيمة محل النصر والضعف محل القوة والعزة محل الذل إلا بسبب الإعراض عن معرفة سنن الله عز وجل وما فيه من الهدي والنور.
ولكن النظر إلى هذه السنن يهب المؤمن كذلك الاطمئنان إلى وعد الله تعالى بنصر المؤمنين الصادقين، وبالتدمير على الكافرين المعاندين، فلا ييأس المؤمن ؛ لأن عنده رسوخاً في إيمانه بأن المستقبل لهذا الدين.
فمعرفة هذه السنن تجعل المؤمن يرى حركة هذه السنن في الأمم الكافرة الممكنة وهي تتهاوى دولة بعد أخرى، ويوماً بعد آخر، وتحق عليها السنن، فيؤمن بأن الله تعالى سننه لا تتخلف ولا تبدل ولا تحابي ولا تجامل فيطمئن قلبه لوعد الله .
وقد قص الله علينا في كتابه أخبار أمم كثيرة، ممن استفادوا من هذه السنن، آمنوا بها وعرفوها وراقبوها ورصدوها، واغتنموا الانتفاع بها، فوهبهم الله تعالى النصر، والتمكين، والقوة، والسعادة في الدنيا وفي الآخرة، كما قص علينا قصص أمم أخرى جهلت هذه السنن، أو عرفتها ولكنها لم تعمل بموجبها، فحقت عليها كلمة العذاب، فلم ينقذهم بعد ذلك ما كانوا فيه من قوة ونصر حينما بدأت عوامل الانحراف وعوامل الضعف تعمل فيهم عملها.
وموافقة السنن الإلهية مما يمنح المسلم شعورا بالعزة ، لأن بعض الناس إذا رأوا قوة العدو ورأوا ضعف المسلمين، ربما داخلهم نوع من اليأس، حتى ربما يميل بعضهم إلى العزلة، لأنه رأى أمراً لم يكن يخطر له على بال، لكن تفطنه إلى السنن الإلهية يجعله يطمئن لوعد الله بأن العاقبة للمتقين.

**4- في معرفة السنن والسير على هداها اجتماع للكلمة ووحدة للصف:**

ففي معرفة السنن ما يعين المسلمين على الخروج من متاهة الاختلاف والنزاع والضعف والتشتت ؛ لأن كشف السنة التي تحكم أمرا من الأمور، سيجعل النظرة إلى هذا الأمر نظرة عليم خبير، وينقل التعامل معه من نطاق الفرضيات والنظريات القابلة للأخذ والرد والاختلاف إلى آفاق العلم الذي لا جدال فيه ولا اختلاف ﴿أَلَا يَعْلَمُ

مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ .
فيجمعهم هذا الأمر بعد تفرق، ويقويهم بعد ضعف، ويوحدهم بعد شتات، ويقيمهم بعد انحراف واعوجاج.

**5- في معرفة السنن والسير على هداها تحقيق لمعنى الاستخلاف في الأرض:**

فمعرفة السنن التي تؤدي لحدوث الظواهر سواء كانت مادية أو إنسانية، ما يفيدنا في التحكم بهذه الظواهر، بمعرفة شروطها وأحكامها وموانع حدوثها، ويجعلنا قادرين على تسخيرها لصالحنا والاستفادة منها وتوظيفها في تصريف شؤون حياتنا، مما ييسر لنا مهمة الاستخلاف في الأرض وبناء الحضارة.

**6- في معرفة السنن ما يرسخ في المؤمنين تعظيم الله وحبه:**

"إن معرفة هذه السنن الكونية التي تحكم حياة الإنسان، وحياة الناس، وحياة الأمم والجماعات والأفراد ؛ تدلك على شيء من عظيم صنع الله تعالى وبديع حكمته، فإذا اطلع المؤرخ مثلاً أو عالم الاجتماع، أو حتى الإنسان العادي، على آثار صنعة الله تعالى في حياة الأمم، وكيف حقت عليها كلمة الله، وكيف مضت عليها سنته، على غير ما يترقب الناس وعلى غير ما يتوقعون، فإنه يمتلئ إجلالاً وتوقيراً للواحد الأحد الذي يحيي ويميت وهو حي لا يموت، فيهتف قائلا كما قال الله عز وجل وأمر: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۖ بِيَدِكَ الْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (26) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (27)﴾.آل عمران

سبحانه ﴿ يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29)﴾الرحمن من شأنه أن يعز أفراداً ويذل آخرين، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يغني هذا ويفقر ذاك، ويحيي هذا ويميت ذلك..

ولله در شاعر الإسلام محمد إقبال رحمه الله تعالي

**لك في البرية حكمة ومشيئة * * * أعيت مذاهبها أولي الألباب**

**إن شئت أجريت الصحارى أنهرا * * * أو شئت فالأنهار موج سراب**

**ما ذا دهى الإسلام في أبنائه * * * حتى انطووا في محنة وعذاب**

**فثراؤهم قفر ودولة مجدهم * * * في الأرض نهب ثعالب وذئاب**

**عاقبتنا عدلا فهب لعدونا * * * عن ذنبه في الدهر يوم عقاب**

ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل الاعتبار به نبههم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدهم إلى تطبيقه على أحوال الأمم الأخرى فقال تعالي:﴿ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (137)﴾**آل عمران.**

فجريان الأمور على السنن المطردة حجة على جميع الناس مؤمنهم وكافرهم، تقيهم وفاجرهم، وهي تدحض ما وقع للمشركين والمنافقين من الشبهة على الإسلام إذ قالوا: لو كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسولا من عند الله لما نيل منه، فكأنه يقول لهم: إن سنن الله حاكمة على رسله وأنبيائه كما هي حاكمة على سائر خلقه.
فما من قائد عسكر يكون في الحالة التي كان عليها المسلمون في أحد، ويعمل معه ما عملوا إلا وينال منه؛ أي يخالفه جنده، ويتركون حماية الثغر الذي يؤتون من قبله، ويخلون بين عدوهم وبين ظهورهم وما يعبر عنه بخط الرجعة من مواقعهم والعدو مشرف عليهم إلا ويكونون عرضة للانكسار إذا هو كر عليهم من ورائهم، ولا سيما إذا كان ذلك بعد فشل وتنازع...
فما ذكر من أن لله تعالى سننا في الأمم هو بيان لجميع الناس لاستعداد كل عاقل لفهمه، واضطراره إلى قبول الحجة المؤلفة منه، إلا أن يترك النظر أو يكابر ويعاند.

**7- حجية السنن :-**

فهم العقلاء هذه الحجية للسنن الربانية، فاستدلوا بها وأقاموا من خلالها الحجة على أقوامهم؛ فمؤمن آل فرعون يقول لقومه ساحبًا حكم من سبق عليهم لتحققهم بصفاتهم:
قال تعالي ﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ (30) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ (31) وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ (32)يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (33)وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ (34) ﴾(غافر ).
فالذي يتأمل هذه الآيات الكريمة يجد كيف استدل مؤمن آل فرعون بالسنن التي مضت في الأمم السابقة، (مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم).
«وحقيقة السنن التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وعلى أساس هذا يكون الاستدلال بالسنة.
يقول ابن تيمية رحمه الله: وحقيقة الاستدلال بسنته وعادته هو اعتبار الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبار المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ (13) ﴾(آل عمران )
وقوله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ

فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ(2)﴾(الحشر ).
وإنما تكون العبرة بالقياس والتمثيل، فإذا عرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذبهم وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أن من صدقهم كان سعيدا، ومن كذبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول الله في تحقيق عادته وسننه وأنه لا ينقضها ولا يبدلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) ﴾(القمر ).
هذا تطبيق الاعتبار والقياس، ثم قال: (أم لكم براءة في الزبر، فنفى الدليل العقلي والسمعي فيقول: فإذا لم يكونوا خيرا منهم فكيف ينجو من العذاب مع مماثلتهم لهم؟) وهكذا يتضح أن السنن قطعية الدلالة على مرادها؛ لأنها لو لم تكن كذلك لما كانت مطردة سارية على الجميع.

**الهدف الثامن:أن يتعرف الدارس علي فقه المسلم في التعامل مع السنن الإلهية.:-**

الإنسان مهيأ لإدراك السنن الربانية لأن الله تعالي استخلفه في أرضه، واستعمره فيها، ومهد له سبل الانتفاع بها، ووسائل التعايش معها، وجعل كل ما حوله يخدمه ويؤازره، وزوده بملكات يدرك من خلالها ما حوله وهداه إلى سبل الانتفاع بها، وجعل ذلك نعمة من نعمه تعالى عليه، ومنة من مننه لديه ؛ بل علة لتسبيحه تعالى فقال: ﴿اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (1) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ (3) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ (4) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَىٰ (5)﴾[الأعلي]
وهيأ له من وسائل العلم والمعرفة ما يجعله أهلا لتلقي أوامر الله تعالى وتنفيذ وصاياه، لذلك كثر في القرآن الكريم الأمر بالسير في الأرض والتفكر فيها والنظر في جنباتها والاتعاظ بأحوال أهلها.
**(فقه السنن الإلهية)**، فأهم شرط من شروط التعامل المنهجي السليم مع السنن الإلهية والقوانين الكونية في الأفراد والمجتمعات والأمم هو أن نفهم أو نفقه فقهًا شاملا رشيدًا هذه السنن وكيف تعمل ضمن الناموس الإلهي، أو ما نعبر عنه بـ (فقه السنن)، ونستنبط منها على ضوء فقهنا لها القوانين الاجتماعية والمعادلات الحضارية).
ومن هنا يقول الإمام البنا رحمه الله: (لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة، ولكن غالبوها واستخدموها وحولوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد). .
ولقد رصد الأستاذ الشيخ البنا رحمه الله في هذه السطور القليلة حشدًا هائلا من القيم العالية والتوجيهات الرائعة التي هي بحق معالم وملامح لفقه السنن الربانية، ويمكن أن تستخرج من كلامه في فقه التعامل مع السنن الربانية هذه الخطوات:

**أولا: عدم المصادمة.**
**ثانيًا: المغالبة.**
**ثالثًا: الاستخدام.**
**رابعًا: التحويل.**
**خامسًا: الاستعانة ببعض السنن على بعض.**
**سادسًا: ترقب ساعة النصر.**

وهذه الخلاصات وغيرها أعقبها الشيخ .رحمه الله.بقوله:

(فعلى هذه الدعائم القوية أسسوا نهضتكم، وأصلحوا نفوسكم، وركزوا دعوتكم، وقودوا الأمة إلى الخير، والله معكم ولن يتركم أعمالكم) .

وإذا أردنا أن نفصل هذه الخطوات وجدناها على النحو التالي:

**1- عدم المصادمة:** ذلك أن الإدراك الحقيقي للسنن الربانية يجعل الإنسان بعيدًا عن مصادمتها، وكيف يصادمها وهو يدرك طبيعتها ويعلم سيرها وعدم تخلفها أو تبدلها وتحولها، من هنا فهو يتعامل معها على هذا الأساس تعامل الكيميائي مع المواد التي يعرف خصائصها ويدرك كنهها، والطبيب الذي يعرف خصائص المرض وأنواعه فيشخص الداء ويصف الدواء بكل تجرد وحيادية.

**2- المغالبة:** والمغالبة تعني المفاعلة، ويراد بها هنا أن المسلم إذا كان لا ينبغي له أن يصادم السنن والنواميس ولا يقف أمامها فإنه مأمور بأن يغالبها ويوظفها لصالحه، ويجعل تيارها معه لا عليه.

**3-الاستخدام:** وهو المقصود بالتوظيف بعد الإدراك والتسخير بعد الفهم، وهذا هو بيت القصيد؛ من فهم السنن الربانية أن يصل بها في النهاية إلى درجة توظيفها له وانتفاعه بها؛ بل حسن التوظيف وحسن الانتفاع.

**4- تحويل تيارها:** والمقصود من تحويل تيار السنن والنواميس الربانية أن يجعلها الإنسان تخدمه لا تستخدمه، وأن يغتنم قوتها وشدتها، وأن يجعل تيارها يجري في المسار الذي يخدمه ويعود عليه بالنفع والغنم.

**5- واستعينوا ببعضها بعض على:** وهذا دور الإنسان المدرك لطبيعة السنن والمدرك لأنه أهل لاستخلاف الله تعالى له، وجعله سيدًا في هذا الكون؛ فهو بهذا الاستخلاف وتلك السيادة يملك بعقله الذي وهبه الله تعالى له توظيف بعض السنن ببعض، والاستعانة بها عليها حتى يكون مسخرًا لها ولا تكون هي مسخرة له، وساعتها سيكون من أهل النصر القريب والفتح المبين.

**الخاتمة :-**

إن الأمة اليوم عامة والعاملين للإسلام خاصة في أمس الحاجة إلى هذا الفكر الواعي الذي يقوم على التدبر في سنن الله تعالى وفقه التعامل معها، فإن كثيرًا من أمراض أمتنا نشأت وترعرعت في ظل غياب الفهم الكامل لمضامين القرآن الكريم، والغيبوبة التي طالت عن مراد الله تعالى.

ونحن بتقصيرنا في هذا الجانب جانب السنن الربانية وفقهها نشارك في رسم صورة سيئة عن الإسلام عند أعدائنا، فإنهم يربطون بين تخلفنا العلمي والحضاري والثقافي والمعيشي وبين ديننا، فيظلم هذا الدين الجريح بهذه النظرة إليه، ولنا في صنع هذا الظلم له نصيب كبير.

إن من فهموا قوانين الله تعالى وسننه في خلقه استطاعوا أن يحققوا سبقًا ويحرزوا نصرًا، ويصلوا إلى أهدافهم؛ فمؤمن آل فرعون استطاع أن يصل إلى ما يريد من خلال إرشاد قومه إلى سنن الله تعالى في الأنفس والآفاق، وأتت عبارته بهذه الدقة البالغة والبيان المعجز ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ غافر

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَاد﴾( غافر)

وجنود طالوت فهموا أيضًا سنن الله تعالى فقالوا: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (249) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ(250) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (251)﴾( البقرة).

إن أمة تريد النصر وتسعى إليه لا بد أن تفهم هذه السنن وتنادي بفهمها حتى يعم النصر المؤمنين ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (4) بِنَصْرِ اللَّهِ ۚ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (5) وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (6)﴾ ( الروم).

فلابد من مراجعة النفس مع كتاب الله تعالي فهما وتدبرا

ومراجعة عبادة الإعتبار في أحوال الأمم السابقة ، وفقه التعامل مع سنن الله تعالي وعلينا بالإعتصام والوحده والتركيز نحو الهدف ولا ننجر إلي خلافات فرعية تثنينا عن هدفنا الأكبر وهو التمكين لدين الله تعالي من أجل الحصول علي رضا الله تعالي والفوز بجنة عرضها السماوات والأرض.

اللهم فقهنا وعلمنا وخذ بأيدينا إليك أخذ الكرام عليك ... آمين يارب العالمين